محمد الخليلي

من أمالي الإمام الصادق

وهو شرح ما أملاه الإمام ع على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي

الجزء الثاني

مؤسسة الوفاء

محمد الخليلي

من أمالي الإمام الصادق عليه السلام

وهو شرح ما أملاه الإمام ع على تلميذه
المفضل بن عمر الجعفي

الجزء الثاني

مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان - ص.ب: ١١٤٧ - تلفون ٣٤٢٦٤٣

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمستحق الحمد على نعمه ، والصلاة على سيد رسله ومعدن حكمه ، وعلى آله وصحبه والتابعين له باحسان ،

وبعد فان للانسانية كما لا يخفى دعامتين قويتين عليهما يقوم كيانها ، وان للانسان جانبين مهمين بهما تدعم حياته وتسمو صفاته وهما : الجانب المادي الذى يشترك فيه معه الحيوان بأنواعه والجانب الروحي الذي به يرتفع عن الحيوانية ، وبه يمتاز عن سائر المخلوقات الكونية حتى الملائكة اذا ما رعاه واعطاه حقه من الاهتمام والعناية لينتهي به الى السعادة في الحياة والراحة والاطمئنان في الدنيا والآخرة ، لا سيما إذا كان ممن يطمئن الى يوم الجزاء ، ويعتقد مدركا انه لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً وان له خالقاً حكيماً عليماً قادراً غنياً ، يثيبه على طاعته ويجازيه على معصيته وان بهذا كرّمه الله تعالى وسخر له البر والبحر اذ يقول تعالى: ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر .

وهذان الجانبان من كيان الانسان هما ككفتي ميزان ، اذا ما ارتفعت

كفـــة هبطت الاخرى ، والسعيد من اعتدلت لديه هاتان الكفتان ، ولم تطغ إحداها على الاخرى . كما ان الكيس العاقل هو من أمكنه أن يسير بينهما سيراً معتدلا مستقيما فيعطي كل جانب منهما حقه ولم يمل نحو أحد جانبيه في سيره وذلك إذا ما عمل بقول الرسول الكريم ﷺ : اعمل لدنياك كانك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كانك تموت غداً .

اما اذا طغت الجنبة المادية على الروحية فقد هوى صاحبها في منخفض الخسة والهلكة وتدهور في ظلمة من الجهل والغواية ، إذ تنتكس بصيرته ويعمى قلبه ، ويُضرب بينه وبين الحقيقة والصواب حجاب من الغفلة والغرور، فلا يرى شمس الحق وان كانت ظاهرة في كبد السماء واضحة ساطعة : حتى يصبح وفي كيانه فراغ واسع لا يسده إلا الرجوع الى الايمان بالله والالتجاء الى الدين الصحيح الذى ينتشله من تلك الانتكاسة وذلك الهوى السحيق . اما اذا وفق الى اتباع العقل السليم وفتحت عين بصيرته ووعى قلبه ، ثم رعى الجانب الروحي في كيانه ، ولم تتغلب عليه الغريات المادية ، فقد اهتدى الى الصراط المستقيم وسعدت حياته ورغـــد عيشه في النشأتين ، وأصبح ممن انعم الله عليـــه بالهداية ، ومن انعم الله عليه بالهدى فقد فاز . ثم اذا تأمل بعد هذه النعمة مفكراً وامعن معتبراً فانه يرى الله امامه في كل جزئي وكلي من هذا الكون ، لان الكل ناطق بـ (لا آله إلا الله وحده لا شريك له) .

وفي كل شـــيء له آية تدل على انه واحـــد

والويـل لمن اغمض بصره واعرض عن التفكر في الآيات البينـــات والدلائل الواضحات التي تمر عليـــه في كل آن ومكان ، فانه وايم الحق قد ظلم نفسه عمداً وحاد عن الطريق المستقيم اختياراً وعليه فمن العدل ان من كان هذا عناده

وهذا اعراضه أن يخلد في العذاب ، لا سيما في هذا القرن قرن العشرين الذي وقفت فيه البشرية بعقولها الجبارة وافكارها الغواصة في بحور الحقائق على دقائق الخلقة حتى ادركت بدائع الصنع وعرفت كنه الاشياء وحقائقها ،ومن البديهي المسلم ان العلم يؤيد الايمان والعقل يدعو الى الرحمن كما صرح بذلك فلاسفة هذا العصر ومفكروا هذا الجيل .فمن العجب العجاب أن تهجم علينا في مثل هذا العصر الزاهي بالعقول الكبيرة والافكار الراقية موجة من المادية الرعناء ، فتلقي على العيون غشاوة تمنعها عن رؤية انوار الحقيقة وعلى العقول حجاب يذهلها عن ادراك ما ينفلها ، حتى نصبح ونحن مستسلمون لها دون رؤية او تعقل ومنقادون الى هاويتها دون تصور او تبصر كاننا صم بكم لا نشعر بشيء أبداً .

وهذا لعمري هو الداء الوبيل الذي عز شفاؤه وعسر علاجه اذ لا طبيب ولا مصلح . ولو فتشنا عن سبب ذلك الداء وفحصنا العلة لهذا الانحراف المقيت لعلمنا بكل وضوح ان ذلك لم يكن إلا لأننا أهملنا رعاية الجانب الروحي منا ، وملنا بكليتنا الى المادة الطاغية حتى نسينا الله وجهلنا آياته وانكرنا نعمه واحسانه، ولم نخف عقابه وعذابه ، اما اذا القينا حجب الغفلة عن عقولنا وفتحنا للحق بصائرنا فانا لم نجد لنا ملجأ سوى الرجوع الى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وإلا الى الايمان بوحدانيته التي لم يسعد البشر إلا بها وإلا الى الاقرار باليوم الآخر الذي عليه مدار أعمالنا الدنيوية ونجاحنا الأخروي ، وهذا بالطبع لا يحصل إلا بما يقوم به المسلم الصحيح اليوم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يبذله الموحّد المؤمن من جهد في تذكير الناس بربهم وارشادهم الى الحق بكل وسيلة ممكنة مناسبة ، حتى بالكتابة والتأليف او بالمحاضرة والنقاش الغزير المثمر أو بالنشرات والدعايات أو بالمنابر النافعة والمواعظ الموقظة الى غيرها من الطرق

والوسائل المفيدة في هذا الغرض وحيث اني مسلم بشعر كاخوانه المسلمين بالمسؤلية تجاه دينه وعقيدته ويدرك ما عليه من واجب الامر المعروف والنهي عن المنكر ويعرف ما يراد منه من الارشادات فقد رأيت لزاماً عليّ ان اساهم في هذا المضمار وان أودي بعض الفرض الاسلامي في هذا اليوم المظلم من ارشاد وتنبيه ، فقد ورد في الحديث الشريف (من اصبح ولم يهتم بامور المسلمين فليس بمسلم) .

وارائي قد وفقت بعض التوفيق لذلك باقدامي على شرح المجلس الاول من امالي الامام الصادق عليه السلام من كتاب ـ توحيد المفضل) ـ الذي املاه مولانا الصادق عليه السلام على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي في اثبات التوحيد باوضح البراهين وامتن الادلة والحجج . كما وقد شجعني على شرح المجلس الثاني منه اقبال القراء على الاول ووقوعه موقع القبول لدى ذوي الفضل والدين وقد اثنوا عليه ثناء جعلني أحس بان عملي هذا كان مقبولا عند الله تعالى ومرضياً لدى الامام الصادق عليه السلام وان جهدي لم يكن ضائعاً فحمدت الله تعالى على ذلك ورجوت به الآخرة ان شاء الله تعالى .

وها انذا اتقدم الى القراء الكرام بما سمح به فكري القاصر من الشرح وما بلغ اليه ادراكي من البيان في ايضاح مقاصده الجليلة ومراميه السامية مستعيناً بتوفيق الله وقدسية الامام عليه السلام فيه رجاء ان يستضيء به المسلم في الاستدلال على اثبات توحيد الله والبرهنة على وجود الخالق الصانع الحكيم بعبارات سهلة وبيان اردت به ان يكون عند متناول كل احد من القراء مهما كان في ادراكه ومن الله جل شأنه اطلب العون والتوفيق .

وهو من وراء القصد

محمد الخليلي

الشروع بالكلام

قال المفضل فلما كان اليوم الثاني بكرت الى مولاى فاستئذن لي فدخلت فامر لي بالجلوس فجلست فقال الامام الصادق عليه السلام : الحمد لله مدبر الادوار ومعيد الاكوار

ابتدأ عليه السلام بالحمد اقتداء بالقرآن الكريم حيث افتتح بسورة الحمد ﴿ الفاتحة ﴾ بقوله تعالى : الحمد لله رب العالمين . وعملا بقول جده النبي الامين صلى الله عليه وآله اذ يقول : كل أمر ذى بال لم يبدأ بالحمد او بحمد الله فهو أقطع اى مقطوع البركة. وكلة الحمد هنا مبتدأ معرف بالالف واللام الجنسية اذ لا عهد هنا، اى جميع اجناس الحمد وأنواعه من كل مخلوق ناطق او صامت ظاهر او غائب طبيعي او غير طبيعي زماني او سرمدي مادي او مكاني ، ومن المعلوم ان جميع هذه الاجناس من الحمد مخصوصة بمن هو مستحق لجميع الكمالات الذاتية والصفاتية ، وبمن يأله اليه الخلق عندالانقطاع عن غيره واليأس عمن سواه وهو « الله » تعالى لا غير . اما الخبر فهو الجار والمجرور (لله) .

والحمد عبارة عن الاقرار بالعبودية لله سبحانه مع انكسار المخلوق وافتقاره وتذلله وفنائه عند من هو الغني فى ذاته القوي في سلطانة الواضح فى برهانه الظاهر في سطوته والمتسلط في جبروته ، ونحن لو نظرنا بعين البصيرة والادراك لرأينا ان كل مخلوق في هذا العالم يحمد الله بفطرته وبمجّده بلسان استعداده

«وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وهذه الآية الكريمة تثبت لنا ان لكل صنف من أصناف خلقه لسان يحمد به ربه ويوحده « يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم » .

واعلم ان بين الحمد والشكر فرق واضح وان تقاربا في المعنى ، وذلك ان الحمد لا يكون إلا على الفعل الجميل والاختيار الحسن . والشكر لا يكون إلا على الانعام والاحسان وان لم يكن بالاختيار وبتعريف آخر : الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري من نعمة وغيرها فيقال : حمدت فلاناً على علمه وكرمه ، والشكر مقابلة النعمة اعتقاداً وقولا وعملا ، اي وصف الجميل على جهة التعظيم والتبجيل باللسان والجنان والاركان ، فيكون الشكر على هذا اعم من الحمد والحمد شعبة منه بل هو رأسه وقد قيل : ما شكر الله من لم يحمده .

ثم ان الشكر على ما حققه العلماء ثلاثة اقسام (١) شكر الانسان لمن فوقه ، ويظهر بالخدمة والثناء والدعاء (٢) شكره لنظيره وذلك بالمكافئة ومقابلة الجميل بالجميل (٣) شكره لمن دونه ويبدو هذا بالثواب والانعام .

وقد حكم الشرع والعقل بوجوب شكر المنعم حتى وان كان من المخلوقين اعني الذي جعله الله سبباً في ايصال الخير على يده ، وقد ورد عن رسول الله ﷺ : من اتى اليه معروف فليكافء به فان عجز فليثن عليه ومن لم يفعل فقد كفر النعمة ، وعنه ﷺ لعن الله قاطعي سبيل المعروف ، فقيل له ومن هم ؟ قال ﷺ الرجل يصنع اليه المعروف فيمتنع صاحبه ان يصنع ذلك الى غيره ، كما قد ورد : من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق .

اما لفظ الجلالة (الله) فهو علم لذات واجب الوجود المقدسة والموصوفة بجميع الكمالات واصله (إله) حذفت منه الهمزة على غير قياس ثم عوضت عنها

الالف واللام لا التعريف فقد جل تعالى عن التعريف والتخصيص بل التلفظ بصورة العلم المعروف لدى الناس ، اما اذا اسند اليه شيء فانما يسند الى علمه واحاطته بالاشياء ، وليس كسائر الاسنادات المعمولة عند المخلوقين ، ومعناه المعبود المستحق للعبادة دون غيره ، أو المعبود الذي يأله فيه الخلق اي يتحير في ادراك كنهه وماهيته وفي الاحاطة بكيفيته ، تقول العرب: أله الرجل اذا تحير في شيء ولم يحط به علماً ، ووله اذا فزع الى الشيء .

و (مدبر) صفة لله تعالى مضافة الى الادوار التي هي جمع دور ، والمراد من الدور هنا اما مصدر دار يدور ومعناه عودة الشيء الى ما كان عليه او الى حيث كان ، او اسم جنس لكل حركة ، فالادوار على هذا يكون معناها الحركات والتقلبات . وقد يطلق الدور ويراد به الدهر لانه يدور باهله ويدول ويتقلب .

و (معيد) ايضا صفة لله بعد صفة مضافة الى الاكوار وهي اى الاكوار بمعنى الادوار ، وقد تطلق على الليل والنهار المكور احدهما على الآخر ، قال تعالى : «خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » اى يدخل الليل في النهار والنهار في الليل بتعاقبهما وعودة كل منهما عقب الآخر بنظام مستمر وحكمة مقصودة .

ومعنى (الطبق) هو الجيل ، يقال مضى طبق بعد طبق اى جيل بعد جيل ، وقد يطلق على اختلاف الاحوال الكونية فيقال الدهر اطباق اى احوال مختلفة.

اما (العالم) (بفتح) اللام فهو جمع لا مفرد له كالقوم والرهط . وقد يطلق على مجموعة من الخلق متماثلة كما يقال : عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد . وقد يراد به مجموعة يؤلف بين افرادها او اجزائها ، اجتماعها في مكان او زمان

طبقاً عن طبق وعالماً بعد عالم .

واحد ، فيقال ، عالم الصبا وعالم الذر وامثال ذلك وقد يطلق ويراد به الخلق كله على اختلاف وحداته واجناسه وانواعه ، باعتبار ان الجميع تجمعهم خلقة الله تعالى . وهو يجمع على صيغتين احداها بالواو والنون فيقال (عالمون) والثانية على وزن صيغة منتهى الجموع فيقال (عوالم) .

فاذا عرفت هذه المقدمة اللازمة فاعلم ان الامام الصادق عليه السلام بعد ان حمد الله تعالى واثنى عليه عند شروعه في الكلام وذلك لوجوب الحمد لمستحقه على نعمه وآلائه ، أراد ان يعين ذلك المحمود ليخص الحمد به فقال : انه هو المدبر للادوار بقدرته والمدبر لها بحكمته من افلاك وسموات وارضين وما فيهما وما بينهما وما فوقهما وما تحتهما بل وكل يدور ويتغير وينقلب من الممكنات المخلوقة له . ثم هو أيضاً المعيد لتلك الادوار والاكوار بسننه الطبيعة ونواميسه الكونية اذ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، كما يعيد الأجيال طبقاً عن طبق اى جيلا عن جيل وعالماً بعد عالم .

ثم انه تعالى لما كان هو المتفضل الفياض بالوجود على جميع هذه الممكنات، ولما كان ذلك الفيض لا انقطاع له عن خلقه ، ولا نهاية لكرمه ولطفه وتفضله كان المدبر المدير لتلك الممكنات والمعيد المكور لليل والنهار على سننه التي لا تبديل لها ولا تحويل على التوالي والتعاقب دون أى اختلاف أو اختلال ، وما ذلك إلا بفضل نعمه وآلائه التي يجب الشكر عليها والحمد له جل وعلا .

والى هذا المعنى أشار الامام أبو جعفر الباقر عليه السلام كما في كشكول البيدى ص ٦٧ اذ قال : في توحيد الصدوق (رض) عن جابر بن يزيد قال : سألت

أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى : « إفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » قال عليه السلام : يا جابر تأويل ذلك ان الله عز وجل اذا أفنى الخلق وهذا العالم وسكن اهل الجنة الجنة واهل النار النار جدّد الله عالماً غير هذا العالم وجدّد خلقاً من غير فحولة ولا اناث يعبدونه ويوحدونه وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم وسماء غير هذه السماء تظلهم ، لعلك ترى ان الله انما خلق هذا العالم الواحد ، لم يخلق بشراً غيركم ، بلى والله لقد خلق الف الف آدم وانت في آخر تلك العوالم واولئك الآدميين ، (انتهى) فسبحانه من عظيم مقتدر لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار .

عدل الله في خلقه

قال عليه السلام : ليجزي الذين اساؤا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى عدلا منه

استشهد الامام عليه السلام بهذه الآية الكريمة ايذاناً منه بان الله تعالى المدبر لهذه الادوار جيلا بعد جيل والمعيد لهاتيك الاكوار عالماً بعد عالم ، انما خلقها بعلمه وانشأها بقدرته وادارها مدبراً لها بحكمته لم يكن ليفعل ذلك وهو الفعال لما يريد الا لغرض ان يعرفهم نفسه فيعبدونه كما قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » وكما في الحديث الشريف: كنت كنزاً مخفياً فاحببت ان اعرف فخلقت الخلق لكي اعرف، ثم بعد خلقهم كلفهم باتباع اوامره وتجنب نواهيه وانما فعل ذلك ليجزي المسيئين منهم والذين يعملون بخلاف ارادته واوامره ونواهيه ويعصونه في ادآء تكاليفهم ولكن بمقدار ما عملوا من اساءة ، ويجزي المطيعين له المحسنين منهم بالحسنى اى رضا الله والجنة . وقيل ان المراد بالحسنى هنا التوحيد والمراد بالاساءة الشرك . وهذا المعنى قد تكرر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه ، كقوله تعالى في (سورة محمد) ـ ٧ ـ انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوكم أيكم احسن عملا . وفي (سورة هود) : ٧ وكان عرشه على الماء لنبلوكم ايكم احسن عملا . وفي (سورة الملك) : ٢ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا.

وهنا يستحسن ان نعرف الفرق بين المجازاة والمقاصة فنقول : المقاصة تكون بمقابلة الفعل بالفعل من جنسه كمقابلة الضرب بالضرب والجرح بالجرح قال تعالى المائدة ـ ٤٩ ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ . اما المجازاة فهي مقابلة الفعل بآخر من غير جنسه كمقابلة الشتم بالضرب مثلا فيكون على هذا مفاد كل منهما غير مفاد الآخر . وقد تعالى سبحانه عن ان يقابل العاصي من خلقه بمثل ما عمل فيقاصه بجنس العمل بل يجازي بغير جنس العمل والمعصية وبه يحكم العقل ايضا

ثم قال عليه السلام : عدلا منه اى ان هذه المجازاة المذكورة التي اوجبها هو على نفسه وارادها لخلقه وهو الفعال لما يريد لم تكن إلا عن عدل منه لا ظلم فيها ولا جور اذ العدل هو الذى يقتضى ذلك بل هو اصل كل خير ومبعث كل فضيلة وعليه مدار كل امر حسن وبه قامت السموات والارض وهو ميزان الله المبرأ من كل زلة وصراطه المستقيم المؤدى بسالكه اليه ، وبالعدل يستتب امر العالم ، قال تعالى : الذى نزل الكتاب بالحق والميزان ﴿ العدل ﴾ وقال تعالى : والسماء رفعها ووضع الميزان ـ اراد بالميزان العدل ـ الى غير ذلك .

وقد عرفوا العدل ، بانه مراعاة الاستقامة على حاق الوسط في طرفي الافراط والتفريط الذين هما ككفتى ميزان متى رجحت احداهما فالنقصان لازم والخسران قائم . قال عليه السلام : بالعدل قامت السموات والارض ولو كان شيء من اصول العالم وجزئياته زائداً على الآخر افراطاً او ناقصاً عنه تفريطاً لاختل نظامه ولم يستقم قوامه ، ولهذا وصف الله تعالى بالعدل ، اذ كان

معنى عدالته وعدله هو وضعه كل موجود في مرتبته وهبته له ما يستحقه دون زيادة او نقصان مضبوطاً بنظام حكمته ومعتدلا بنواميس عدله لذلك ترى ان لا تبديل لسنته ولا تحويل فيها .

اما المقصود من قولهم : العدل اصل الفضائل كلها ، فلان صاحبه يكتسب به كل فضيلة وبه يجتنب كل رذيلة ، فالفضائل كلها ملكات متوسطة بين طرفي الافراط والتفريط والتوسط بين هاتين الكفتين هو العدل بعينه ، كمثل العفة المتوسطة بين خمود الشهوة والفجور وكالشجاعة المتوسطة بين الجبن والتهور وكالسخاء المتوسط بين البخل والتبذير والتواضع المتوسط بين الكبر والذلة الى غيرها من الاخلاق والملكات المحمودة اما الخروج عن احد طرفي الافراط والتفريط في كل تلك الملكات فهو الجور الذي هو ضد العدل ومن هنا قيل : خير الامور اواسطها .

وحاشا لقدس الله ان يفعل بغير العدل او ان يتصف بالظلم والجور ، فان كلما يفعله مع العبد في ايجاده وتكليفه او مجازاته لطاعته وعصيانه لا يكون الا عدلا منه سبحانه وبالعدل المنزه من كل جور او ظلم .

ثم قال عليه السلام : تقدست اسماؤه وجلت آلاؤه . اقول : التقديس هو تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولا وعملا عما لا يليق به وتعيده عن كل سوء اما في الذات كنفي الامكان عنه المستلزم للجسمية والعرضية والضد والند . او في الصفات بان يكون مبرأ عن الجهل والعجز وعن كل تغيير يوجب الحدوث والامكان لانه هو المحيط بكل المعلومات والقادر على كل مقدور . او في الافعال بان لا تكون افعاله عبثا كما لا تكون لجلب نفع او دفع ضرر عن نفسه تعالى عما يصفه الجاهلون علواً كبيراً .

و (الاسماء) جمع اسم وهو ما دل على المسمى ، ولما كانت اسماء الله سبحانه دالة على الذات المقدسة فقد تقدست وبوركت لدلالتها على اقدس الذوات والمعاني ولهذا سميت (بالاسماء الحسنى) . اما (الآلاء) فمعناها النعم وهي جمع [ألي ء] بفتح الهمزة وقد تكسر وهذه النعم من الله تعالى وان استحال احصاؤها (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لكن تقريباً الى الذهن تقسم الى قسمين او جنسين - دنيوية واخروية - اما الدنيوية فهي ايضا قسمان [١] وهبية [٢] كسبية والوهبية قسمان ايضا [١] روحيه كهبة الروح والعقل وما يتبعها من القوى المدركة والمحركة [٢] جسمية كخلقة البدن على احسن تقويم ومنح الهيكل الجميل المتناسق الاعضاء وتسليح هذه الاعضاء بالقوى اللازمة لها لاداء وظائفها والحالات العارضة عليها من صحة ومرض ونشاط وخمول .

اما الكسبية : فهي كتحلي النفس بالفضائل المكتسبة وتخليها من الرذائل الممقوتة وكالملكات وتحصيل المال والجاه وما الى ذلك ، وهذه كلها نعم دنيوية .

اما الاخروية : فهي كحصول المرء على المغفرة من الله تعالى على مافرط منه . الرضا عنه وكدخول الجنة والنعيم او نجاته من النار والعذاب في الجحيم .

هذا مع العلم بان اصل كل هذه النعم وغيرها من النعم الاخرى الكثيرة ليس الا الحياة المستتبعة لكل نافع مفيد في الدنيا والا الايمان بالله المستلزم لكل خير وسعادة - فالدنيا مزرعة الآخرة .

والخلاصة ان الامام عليه السلام بعد ان ذكر الحكمة من الخلقة والغاية التي تسير اليها هذه العوالم والاجيال من مجازاة العاصين ومكافأة المحسنين بالعدل المنزه من الجور والظلم قال عليه السلام معترفاً بان هذا المدبر المبود المجازي والمكافيء ، لما لم يمكننا ان نصف ذاته لجهلنا بالكنه والحقيقة ، عرفناه باسمائه

عبادة ، فشكرناه وحمدناه لنعمه الجليلة علينا وآلائه الوافرة لدينا، وقد ورد في الحديث الشريف : تفكروا في ذات الله ولا تفكروا في الله - وهذا بديهي لا يحتاج الى برهان ، إذ كيف يمكن للصنوع ان يعرف كنه صانعه ، او ان يدرك مخلوق حقيقة خالقه اللهم إلا ان يستدل على وجـــوده بآثاره وعلى ذاته باسمائه فسبحانه ما اعظم شأنه .

نفي الظلم عن الله تعالى

قال عليه السلام :لا يظلم الناس شيئاً :

المراد من قوله ﷺ لا يظلم الناس شيئاً اي لا ينقص احداً من حسناته وجزاء طاعاته كما لا يزيد في سيئآت الآخر وجزاء معاصيه ، ولكن الناس هم يظلمون انفسهم بارتكابهم القبائح وانهماكهم في الغي والعصيان فيكونون في الحقيقة هم الذين ينقصون من حسنات انفسهم ويزيدون في سيئآتهم بما يعملون.

ومن البديهي المسلم ان الله سبحانه لم يكن ليكلفهم باتباع اوامره واجتناب نواهيه إلا بعد ان ارسل اليهم الرسل والانبياء مبشرين ومنذرين ، وبعد ان انزل لهم الكتب والصحف فيها تبيان كل شيء ثم اظهر البراهين والمعاجز على يد انبيائه وهذا كله بعد ان خلق لهم في انفسهم العقول المميزة والافكار المرشدة واودع في كل خلق من مخلوقاته آية ودليلا على وحدانيته ووجوده ، نعم تفضل تعالى بكل ذلك كرماً ولطفاً ، ولكنهم اعرضوا عن النظر في تلك الآيات ولم يفكروا فيها وقد امرهم بالتفكير في هاتيك البراهين والحجج ليستدلوا بذلك على

ولكن الناس أنفسهم يظلمون يشهد بذلك قوله جل قدسه :

وجود خالقهم الحكيم وصانعهم العظيم . وبهذا الاعراض ضيعوا على أنفسهم الثواب المأمول وجرّوا عليها العقاب المؤجل ، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم بعدولهم عن المحجة الواضحة الى تيه الجهل والطغيان .

وحاشا لله أن يصدر عنه الظلم مع قدرته عليه بل هو ممتنع عليه لقبحه على الحكيم الغني على الاطلاق وكيف يجوز عليه ذلك والعدل من صفاته الذاتية، والاعتقاد به من واجب العقل والنقل ؟! أما العقل فيقول : إن عدم وجود الآله الظالم خير من وجوده ، وان انزال الكتب وبعث الرسل والوعد والوعيد وما الى ذلك مع الظلم يصبح كله لغواً ونقضاً لغرض الحكيم في خلقته ، كما ان حال المطيع والعاصي في الخوف والرجاء يصبح على السواء إذ لم يبق اعتماد على اخبار الانبياء والرسل والكتب بثواب المطيع وعقاب العاصي ، وهذا بلا ريب قبيح عقلا والقبح محال على الله تعالى .

وبالجملة فان الحكمة الالهية البالغة وعموم القدرة المطلقة والغنى الحقيقي للكامل المطلق كلها دليل قاطع على نفي الظلم وامتناعه عن الذات المقدسة المتصفة بمثل هذه الصفات .

ومن الغريب العجيب أن يظلم القادر العطوف والغني الرؤف أحداً بلا داع يدعو اليه ولا نفع يرجوه به ولا حكمة تقتضي ذلك وأعجب منه ان ينهى عباده عن الظلم ثم هو نفسه يظلم الخلق ، بلا غرض ولا غاية تعالى الله عما يقول المنحرفون علواً كبيراً .

أما النقل الدال على نفي الظلم عنه تعالى فهو ما استشهد به الامام عليه السلام من قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ومعنى

فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره في نظائر لها في كتابه .

الآية الكريمة ان من يفعل من العباد زنة ذرة من الخير يجد جزاءه حاضراً له يوم القيامة غير مضيع ، كما ان من يفعل زنة ذرة من الشر يلاق ما يستحقه من العقاب أمامه يوم يجزى كل امرء ما عمل غير مظلوم فيه بل بالعدل والانصاف في محكمة العدل الالهي .

ولاتمام الفائدة يستحسن ذكر معاني مفردات الآية ليتضح مغزاها ويعرف المقصود منها فالذر في اللغة صغار النمل التي يزن عدد المائة منها حبة شعير واحدة ومفرده ذرة والمثقال هو ثقل كل شيء أو ميزان مثله وجمعه مثاقيل . والخير لفظ جامع لجميع الامور الحسنة ، كما ان الشر لفظ جامع لجميع الامور القبيحة ، وان الأمور الحسنة هي كل ما ارتضاه الشرع والعقل وكل شيء نافع للفرد والمجتمع والذي يرى نفع هذا الخير هو فاعله أو غيره بواسطة دلالة الفاعل للخير وإرشاده عليه أما الامور القبيحة فهي ضدها .

ومن هنا يلزمنا العقل السليم أن نعرف جيداً بأن من يكون عدله مع عباده بحيث يلحظ لهم من الخير ما يعملونه ولو بمقدار ذرة أعني بحجم اصغر ما يتصوره الانسان من المرئيات بحاسة العين ثم لا يضيعه عليهم بل يجزيهم عليه ، وكذلك بالنسبة لعمل الشر مهما صغر حتى ولو كان بمقدار ذرة ايضاً فانه لا يهمله في محكمة العدل الالهي . أقول : ان من كان بهذا العدل كيف يتصور أو يتوهم صدور الظلم منه وهو القادر الغني الرؤف . ثم ان هذه الآية الكريمة نفسها تحث على عمل الخير وتمنع من اقتراف الشر ، ذلك لأن الانسان العاقل اذا علم ان كل عمل يصدر منه في الدنيا من خير أو شر مهما صغر فانه لا يضيع بل يحفظ له في كتابه الذي يعرض

عليه يوم الحساب للجزاء او المكافاة ، كان جديراً به ان لا يترك خيراً ولا يقدم على شر وقد ورد عن الامام الرضا عليه السلام لا تستكثروا كثير الخير ، ولا تستقلوا قليل الذنوب ، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً .

ثم اعلم ان كثيراً من العلماء ينسبون الى القول بأن الخير يكون في القول والفعل أما الشر فمقتصر على الفعل فقط وهذا غير صحيح بل ولا معقول إذ الشر يكون ايضا في القول والفعل معاً مثل الخير ، وذلك لما ورد عن الامام الصادق عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال : من لم يحسب كلامه من عمله كثرت خطاياه وحضر عذابه . وعنه صلى الله عليه وآله ايضاً : انه قال لمعاذ بن جبل : كف عليك هذا (وأشار الى لسانه) فقال معاذ : يارسول الله انا مؤاخذون بما نتكلم به فقال صلى الله عليه وآله: ثكلتك أمك وهل يكب الناس على وجوههم (مناخرهم) إلا حصائد السنتهم .

أقول : وهذا هو الصواب لأن اللسان يتصرف في كل موجود ومعدوم وموهوم وله يد في المعقولات والخياليات والمسموعات والمرئيات والمذوقات والملموسات . أما سائر الاعضاء فلها تعلق خاص بفعل خاص لا تتعداه بخلاف اللسان . وقدورد في الكافي عن ابي عبدالله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله : يعذب الله اللسان بعذاب لا يعذب به سائر الجوارح فيقول : أي رب عذبتني بعذاب لم تعذب به شيئاً ، فيقال له خرجت منك كلمة فبلغت مشارق الارض ومغاربها فسفك بها الدم الحرام وانتهب بها المال الحرام وانتهك بها الفرج الحرام ، وعزتي وجلالي لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئاً من الجوارح .

وقال بعض العرفاء : إياك ان تحتقر من الاعمال الصالحة شيئاً ابداً صغيراً كان أو كبيراً إذ لا هاجس يهجس لك في الطاعة إلا شكرك الله عليه . وكفى دليلا على ذلك قوله تعالى : ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال

ذرة شراً يره .

ولهذه الآية الكريمة نظائر في القرآن الكريم كثيرة وهو قانون الاسلام ومنهاج الشريعة المحمدية الغراء ، وانا نذكر لك منها نزراً كنموذج لذلك .

قال تعالى : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون .

وقال تعالى :فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى .

وقال تعالى : يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ،

الى غيرها من الآيات البينات الكثيرة نكتفي منها بهذا القدر الكافي .

عظمة القرآن

قال عليه السلام : الذي فيه تبيان كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه

لما استشهد الامام عليه السلام بالآية واشار الى نظائرها في الكتاب اخذ في بيان عظم هذا الكتاب وجلالته وفي سبب استشهاده به ، وذلك لأنه قد جمع بين دفتيه تبيان كل شيء اشارة الى قوله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ـ النحل ـ ٩١) اي يبين فيه كلما يحتاج اليه الخلق من امور الشرع وتعاليم الدين الذي ارسل به نبينا محمد صلى الله عليه وآله اما بالنص الصريح او بالأحالة الى ما يوجب العلم به من بيان النبي صلى الله عليه وآله وسائر الأئمة والحجج أو من الاجماع ، وبديهي ان كل ذلك مستفاد ومستقى من القرآن الحكيم قانون الاسلام ومنهجه .

قال العلامة الطبرسي (ره) في مجمع البيان ، ان معنى الآية وهي قوله تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) هو انه لا يأتي لهذا القرآن ما يبطله من بين يديه مما تقدمته من الكتب التي سبقته بالنزول كالتوراة والانجيل ، ولا من خلفه أي ولا يجيء من بعده كتاب يبطله أو ينسخه فهو خاتمة الكتب السماوية كما ان النبي محمد صلى الله عليه وآله خاتمة الرسل والأنبياء المبعوثين من الله تعالى . أو يقال في تفسيرها : انه ليس في اخباره عما مضى باطل ولا اخباره عما يكون في المستقبل باطل ايضاً ، بل اخباره كلها موافقة لمخبراتها صادقة غير كاذبة أو يقال : انه لا يأتيه الباطل اى من جهة من الجهات فلا تناقض في ألفاظه ولا كذب في أخباره

ولا يمكن ان يعارض ولا ان يزاد فيه او ينقص منه ولا يغير ولا يحرف بل هو محفوظ حجة على المكلفين الى يوم القيامة ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ أقول وكل هذه الوجوه صحيحة تطابق الحقيقة والواقع .

ثم يقول ﷺ : وهذا الكتاب المحفوظ من الله تعالى هو تنزيل من حكيم عليم بوجوه الحكمة ، حميد مستحق للحمد من خلقه على انعامه عليهم بهذا القرآن العظيم الذي هو من أعظم النعم التي تستوجب لمنزله الحمد والشكر جلت آلاؤه ،

هذا هو الكتاب كما وصفه الله تعالى هو نفسه فيه . وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله العظيم وآية صدق رسالة النبي الكريم وبرهان اعجازه ودليل نبوته ودستور احكامه وقانون تعاليمه ونبراس ارشاداته ومنهاج امته الى السعادة وتفله الا كبر الى آخر عمر الدنيا ودوام وجود العالم . بل هو المعجزة الخالدة التي تبلى الا يام ولن تبلى ، وتتجدد فيه الحقائق بادية للعقول كلما هرم الدهر وشاب الزمن ، وتتجلى واضحة لذوي الألباب كلما تقدم العقل الانساني وكمل الادراك البشري ، تلك الحقائق التي قامت لله بها الحجة البالغة على خلقه والتي تظهر وحدانيته لذوي العقول السليمة وبها تدفع الجاحدون الملحدون ذووا الافكار السقيمة وبها يظهر عدله لدى العاصين والمنكرين ، فما اعظمه من كتاب لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وما أجله من نعمة يجب الشكر عليها .

ثم قال عليه السلام : ولذلك أي ولاجل بيان عدل الله في معاملة خلقه يوم الحساب وامتناع حصول الظلم منه بالنسبة اليهم في يوم الجزاء قال سيدنا محمد ﷺ انما اعمالكم ترد اليكم ، اي دون زيادة او نقصان كما قال تعالى : (ولا تكسب كل

نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) الانعام ـ ١٦٤ وهذا هو معنى العدل الحقيق الخالي من تصور أي نوع من انواع الظلم سبحانه وتعالى عن ذلك ،

وهنا لا بأس ببيان معاني بعض الالفاظ فنقول : السيد هو شريف القوم وذو السيادة والقدر الرفيع فيهم وكريم المنصب المتسلط على قومه . وهل خلق الله مثل النبي (ص) شريفاً رفيع القدر ذا سيادة كريماً في قومه بل وفي جميع المسلمين في العالم اجمع ، فلا غرو اذا قال الأمام عليه السلام لجده: قال سيدنا محمد (ص) : اما كلمة (محمد) فهي علم للنبي (ص) فنقل عن الصفة التي معناها كثير الخصال المحمودة . يقال رجل محمد أي رجل كثير الخصال المحمودة قال ابن فارس امام النحو :سمي نبينا محمد (ص) بهذا الاسم لكثرة خصاله الحميدة وكأن الله تعالى الهم اهله عند ولادته فسموه بذلك لما علم سبحانه من سجاياه المرضية الحميدة وصفاته السامية المجيدة. وقال السهيلي : في كلمة (محمد) معنى للمبالغة والتكرار ، فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة كما ان المكرم من كرم مرة بعد مرة واسم محمد مطابق لمعناه في هذا المسمى الشريف ، والله سماه به قبل أن يسمى به أحد وهو علم من أعلام النبوة إذ كان اسمه صادقاً عليه فهو محمود في الدنيا بما هدى اليه ونفع به من العلم والحكمة وهو محمود في الآخرة بالشفاعة ، وقد ورد عن أهل بيته عليهم السلام كثيراً انه قال (ص) سماني الله من فوق عرشه وشق لي اسماً من اسمائه فسماني (محمداً) وهو المحمود . قال ابن قتيبة : ومن اعلام نبوته (ص) انه لم يسم احد باسمه [ص] قبلا صيانة لهذا الاسم من الله تعالى كما فعل [بيحيى] إذ لم يجعل له من قبل سميا ،

. . . . . .

فقد سماه في الكتب المتقدمة وبشر به الانبياء فلو كان اسمه مشتركاً لوقعت الشبهة وكثرت الدعوات باسمه من الكذابين ولكن الله اعلم حيث يجعل رسالته .

أما الصلاة على النبي [ص] فالمقصود منها تعظيمه في الدنيا باعلاء كلمته وابقاء شريعته وفي الآخرة تضعيفاً لمثوبته وزيادة في رفع درجته . وقيل ان نفع الصلاة يعود الى نفس المصلي عليه لأن الله قد اعطى لنبيه [ص] من اعلاء الكلمة ورفع الدرجة مالا تزيده صلاة مصل ولا دعاء داع لا سيما بعد قوله تعالى « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ولكن ورد عن اهل البيت عليهم السلام ولا سيما الامام الصادق عليه السلام ما مضمونه : اذا ذكرتم النبي [ص] ، او ذكر امامكم فاكثروا الصلاة عليه فانه من صلى على النبي مرة واحدة صلى الله عليه مع ملائكته .

هذا ولا يخفى ان الصلاة على النبي [ص] من اعظم شروط اجابة الدعاء ، كما ورد في الكافي عن ابي عبدالله [ع] انه قال : لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلى على النبي محمد وآله .

قال العلماء في معنى ذلك وفي سر ذلك : ان النبي وآله (ص) وسائط بين الله وعباده في قضاء حوائجهم إذ هم ابواب معرفته فلابد من التوسل بذكرهم في عرض الدعاء ، وذلك كما اذا طلب احد الرعية اظهار حاجته الى السلطان فلابد ان يتوسل الى من يعظمه السلطان ولا يردّ قوله . ثم ان العبد اذا ضم الصلاة مع دعائه وعرض المجموع على الله تعالى لم يحجب الدعاء لأن الصلاة لم تحجب ، والله اكرم من ان يقبل الصلاة ولا يقبل الدعاء المنضم لها ولابد ان يقبل الكل وفي النهج عن امير المؤمنين عليه السلام : اذا كانت لك حاجة فابدأ بالصلاة على النبي [ص] ثم سل

حاجتك والله اكرم من ان يسأل حاجتين فيقضي احدهما ويمنع الاخرى .

اما « الآل » فهم العترة وعترة الرجل هم اقاربه وعترة النبي «ص» هم اهل بيته الاقربون الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وقد ثبت لدى عامة فرق الاسلام ان عترة النبي [ص] هم اولاده الذين حرمت عليهم الزكاة والصدقة جعلنا الله من مواليهم ومحبيهم .

الخلق حيارى

قال المفضل : ثم اطرق عليه السلام هنيئة ثم قال :

ثم حرف عطف يدل على الترتيب مع التراخي ، والاطراق مصدر اطرق أي سكت لا يتكلم مرخياً عينيه الى الارض لا يلتفت الى أية جهة من الجهات ، وهنيئة أي قليل من الزمن ، وحيارى جمع حيران وهو من تحير في امره وضل الطريق ولم يهتد الى سبيل وجهل وجه الصواب . وعمهون جمع عمه بكسر الميم وفتح العين وهو المتردد في ضلاله بحيث لا يعرف المحجة مع وضوحها والعمه بفتح الميم للقلب كالعمى للعين . وسكارى جمع سكران وهو الثمل من شرب الخمر وغير الصاحي او محبوس النظر والادراك ، والطغيان هو الغلو والكفر والأسراف في المعاصي ومجاوزة الحد في الموبقات ، والتردد هنا بمعنى التحير وعدم الاستقامة على شيء اما الشيطان فهو اما على وزن (فيعال) فيكون مشتق من الشطن اي البعد عن رحمة الله وعن الخير ، واما على وزن (فعلان) فهو مأخوذ من الشيط اي الباطل والهلاك والاحتراق وعلى

أي معنى فهو الباطل بنفسه والمبطل لصالح غيره او هو الهالك المحترق مغضباً عليه ، ويسمى ابليس ايضاً لانه ابلس من رحمة الله اى ابعد عنها ويأس منها والمراد من الشياطين هنا هم شياطين الانس طبعاً اى العاملين عمل الشياطين في الاغواء والهلاك والاهلاك وفي البعد والابعاد عن الخير وعن الله تعالى .

اما الطواغيت فجمع طاغوت وهو كل جبار متكبر وكل رأس ضلال صرف الناس عن طريق الحق والخير او هو المارد عن الكتاب او هو كل معبود دون الله. والاقتداء هو اتباع غيره فى الاقوال والافعال والاعمال .

يقول المفضل : ان الامام عليه السلام بعد ان حمد الله واثنى عليه بما يستحقه من الحمد والثناء ، وبعد ان ذكر عدله تعالى مستشهداً بقول الله تعالى وقول الرسول صلى الله عليه وآله ، اطرق قليلا من الزمن مرخياً عينيه الى الارض مفكراً فى هذه الناس التائهين في بيداء الجهل والغفلة المترددين فى مهامه التيه والحيرة والانحراف عن جادة الصواب والحق ، رفع رأسه الشريف وقال : يامفضل الا ترى هذه الناس وهم حيارى قد ضلوا طريق الحق لانهم عدموا البصيرة وعميت قلوبهم بما ارتكبوا من انواع الجريرة فهم عمهون عن رؤية آثار خلقة الله وآياته في الآفاق والانفس وعن أمر الآخرة وماسيلاقونه بعد مفارقتهم لهذه الدنيا التي اغتروا بها جهلا وعنادا حتى اصبحوا سكارى في طغيانهم وكفرهم لا يشعرون مغبة عملهم ولا يدركون عاقبة امرهم فامرفوا في المعاصي وجاوزوا الحد فى الموبقات تبعاً لشياطينهم من الانس الذين ابعدوهم عن الحق والخير واهلكوهم باغوائهم نحو الباطل مقتدين بطواغيتهم وجبابرتهم الصارفين لهم عن نهج العقل والهدى الى عبادة الاوثان والتماثيل والاهواء دون الله الواحد

وطواغيتهم يقتدون، بصراء عمي لا يبصرون نطقاء بكم لا يعقلون صمعاء صم لا يسمعون

القهار ، فاذا نظرت اليهم رأيتهم بصراء اى لم يعدموا آلة البصر وهي العين ولكنهم عمي البصيرة عن الحق الصريح لا تدرك قلوبهم سبيل الرشاد فهم لا يبصرون حقيقة اذ العين لا تدرك مرئياً دون ادراك القلب فاذا عدم القلب ادراكه وهـداه عدمت الباصرة رؤيتها البته ، كما انك تراهم نطقاء اى يملكون لساناً ناطقاً متكلماً ولكنهم بكم خرس عن النطق بالواقع ، قد اعتقل لسانهم عن النطق بالشهادتين والتكلم بكلمة التوحيد فهم نطقاء لا يعقلون ، وكذلك هم صمعاء اى ان لهم آذان يسمعون بها اصوات شياطينهم وطواغيتهم فقط لكنهم صم عن سماع الحق وصوت الشرع والعقل فهم لا يسمعون .

وانما شبههم عليهم السلام بالصم لأنهم لا يحسنون الاصغاء الى ادلة التوحيد فهم في الحقيقة كأنهم صم . وشبهم بالبكم إذ لم يقروا بالله ورسوله ولم ينطقوا بالشهادتين وكلمة التوحيد فهم لدى الواقع بكم ، وشبههم بالعمى حيث لم ينظروا في ملكوت السموات والارض ولم يعتبروا ببديع الصنع واتقان الخلقة فكانوا لدى العقل والانصاف عمي عن النظر الى هذه الآيات . وبالجملة فانهم لما اتصفوا بهذه الرذائل كانوا صماً بكماً عمياً لا يفقهون إذ لم تصل اليهم منفعة هذه الاعضاء وكأنهم ليس لهم شيء منها ،

قال تعالى : لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام .

النفوس الواطئة

قال عليه السلام : رضوا بالدون وحسبوا أنهم مهتدون

ان النفوس البشرية لم تزل متأرجحة بين العقل والهوى ومتوسطه بين مرتفع الفكر السليم ومنخفض العواطف الردية والاهواء المهلكة فهي ان مالت نحو العقل ارتفعت فصارت لا تعمل إلا الخير ولا تميل إلا الى محاسن الاعمال ، وان هبطت الى منخفض الهوى حقرت فصارت وضيعة خسيسه لا يصدر عنها إلا المساوىء والفعل القبيح ، ذلك لان العقل من شأنه ان ينظر الى العواقب فلا يختار إلا الافضل الاصلح ، والهوى من شأنه ان لا يرى إلا ما كان امامه فيختار الخسيس غير الصالح دون ملاحظة العاقبة ، وبعبارة اوضح لا يختار إلا ما لائم نفسه الامارة بالسوء لذلك فهو لا يرغب إلا الى السافل الدون إذ لا عقل يردعها ولا فكر سليم يرشدها، اما اذا استمر هذا الاتباع للنفس ضاق صدر صاحبها عن الخير وتوجه بكليته الى الشر و اذا دام وادمن مات القلب وانطفأت البصيرة فلم تنفعه حينئذ الآيات والنذر حيث يصبح فى غفلة تنسيه الآخرة ، وفي سنة تميت فيه حسن الاختيار ومعرفة الصالح ، وعند ذلك يرضى بالدون أي بالحياة الدنيا ويطمئن اليها مع اليأس عن الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور ، فهو اذن لا يلتفت الى ما خلقه الله له من الدلائل والعبر في الدنيا ولا الى النعيم والعذاب في الآخرة .

أما الكيس العاقل الفطن الذى يسترشد العقل ولا يتبع الهوى فانه يعلم مدركا

ان الحيلة تسترق عمره والموت يعتنفه ، وانه مهما طال مكثه في هذه الدنيا كان عمره كخطفة برق لمعت ثم عادت للخفاء لذلك فهو يراعي ما استرعي ويتفكر في بدائع الصنع فيعتبر بها ويتوجه الى الآخرة فينتفع بما يعمل لها للوصول الى نعيمها بل قد يرى هذه الدنيا سجناً له وحزناً عليه فيكون مصداقاً لما حكاه القرآن الكريم عن قول امثاله غداً إذ يقولون : (الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى احلنا دار المقامة لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب)

ولما كان هؤلاء أى تابعوا الهوى والخاضعون للنفس الامارة حيث تميل بهم انى مالت لم يجدوا نقصاً فيما يعملون ولم ينظروا الى عيب فيما يفعلون وذلك لاعراضهم عن الحق وغفلتهم عن التفكر في عواقب الامور وفوق ذلك كانوا قد الفوا الموبقات واستمروا القبائح حتى ران على قلوبهم وعميت عن رؤية الحق بصائرهم ، حسبوا ان طريقهم هذه هي الطريق المستقيم وان مسلكهم الذى يسيرون فيه هو المسلك العدل الصحيح الموصل الى الغاية ، وغلب على ظنهم انهم هم المهتدون ، فرضوا بهذا الدون ، ولكنهم لو أفاقوا من سنة الغفلة وانقلعوا يوماً ما من اغلال النفس واشراك الجهل ، لنظروا الى شمس الحقيقة الساطعة ولعلموا انهم كانوا ممن حاد عن مدرجة الاكياس العارفين ومالوا عن منهج العقلاء الذين ادركوا الحق فاتبعوه ولم يجهلوا الباطل إذ تركوه ، ولعرفوا انهم ضلوا السبيل الى مرعى الأرجاس الانجاس فرتعوه كالبهائم والانعام بل هم اضل سبيلا .

أجل وهل مدرجة الاكياس إلا سبيل الله الذى نهج لعباده من التوحيد له والايمان به ومن طاعته وعبادته وسائر ما دعا اليه على لسان نبيه وامرنا بالعمل

به ، وهل منهج العقلاء سوى العمل الصالح الخالص الذى يتقرب به الى المعبود الاحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد وهو آداء الواجبات وتجنب المحرمات وعمل كل ما يرضيه وترك كلما يسخطه وفقنا الله وإياكم لذلك انه حميد مجيد .

أمانهم من الموت المفاجئ

قال عليه السلام : كأنهم عن مفاجاة الموت آمنون وعن المجازات مزحزحون

المفاجأة مصدر فجأ او فاجأ أى طرق الشيء بغتة وبدون ان يشعر به ، والموت مفارقة الحياة لمن كانت به بخروج روحه من بدنه ، والامان هو عدم الخوف والاطمينان من وقوع ما يحذر منه ، والمجازات هي المكافأة على العمل خيراً كان او شراً ، والمزحزح هو المبعد عن مكانه او محله ، هذه هي معاني مفردات الكلام

أما بيان مراد الامام عليه السلام منه فهو : ان الانسان في جميع ادوار عمره ومراحل حياته منذ ورده الى معترك هذه الحياة حتى يهرم والى ان يموت ، هو اضعف انواع الحيوان وأقلها مقاومة ومقدرة امام اضعف الحوادث الطبيعية لم يزل محفوفاً بمكاره الحياة محاطاً بمفاجآتها واوصابها خلاف سائر انواع الحيوان الاخرى التي تسير في حياتها سيراً مستقيماً منتظماً بدافع الفطرة وبما منحت من ادراك محدود دون تصرف منها او تغيير اختيارى لها ، ولكن الانسان وان كان محروماً من قوة الجسم ولم يرزق تلك الطاقة الطبيعية التي يقاوم بها الطوارى ، كما منح الحيوان ولكنه رزق عقلا واودع الله فيه اسراراً عجيبة ومدارك فائقة كنت فيه كون النار في الزناد ،

. . . . . .

حتى صيرته مخلوقاً قابلا للنمو والترقي والتدرج في الظهور كلما احتك بالمقاصد الحيوية وكلما خبر الامور الخارجية التي تمر به اثناء سيره في حياته ، فهو بهذه النعمة العظمى والمنحة الكبرى خرج عن مصاف الحيوانات وارتقى قمة الانسانية شريطة ان يتبع عقله ويسير على هداه ويستنير بأنواره ، فهو بهذا العقل المرشد ادرك ويدرك وجود خالقه فيوحده ويعبده ، وبه عرف ويعرف اسرار الطبيعة ومبدعات الكون وبديع الصنعة والخلقة وبه بلغ ويبلغ الى احضار وتهيئة ما يلزمه في الحيـــاة الفردية والاجتماعية والاخلاقية والمعاشية وما الى ذلك من الضروريات والواجبات ، غير انا اذا تأملنا في هذا العقل الجبار والخلق العجيب ونظرنا في جليل اعماله ومدركاته ، وجدناه في الحقيقة لم يتوصل الى كل ما ذكرناه بمجرده وانفراده دون مساعدة نور العلم الذي يستمده من الشرائع السماوية والمواهب الآلهية التي اشار اليه القرآن الحكيم بقوله : وعلمنا الانسان ما لم يعلم .

نعم لقد اعطاه الله تعالى العلم الذي يصلح به أمر دنياه وآخرته والهمـــه بواسطة عقله العلوم والمعارف وعرفه الفنون والصناعات بعد ان سخر له كثيراً من مخلوقاته بل كلها ليرغد عيشه وتسعد حياته ، ولكنه تعالى كما منحه هـــذا العلم بواسطة عقله فقد منعه عن العلم الذي لم يكن من شأنه معرفته ولا طاقة له على احتماله ، بل ولم يكن من صالحه ان يعلم به وهو العلم الذي استأثر به نفسه دون خلقه ، واختص به دون ان يطلع عليه احداً مثل علم الغيب وعلم ما هو كائن وبعض ما قد كان كعلم ما فوق السماء وما تحت الارض وما في لجج البحار وما في قلوب النـاس وما تخفي الصدور وما في الارحام وعلم الساعة ومعرفة الروح ونزول الغيث وما يكسب

. . . . . .

الانسان في غده ومتى يموت وأين يموت ، ولقد اشار القرآن الكريم الى بعضها بقوله : (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأي ارض تموت) فهذه امور كلها مما اختص بها الخالق دون المخلوقين وتفرد بها المعبود دون عباده فحجبها عن سواه إذ لا استطاعة للناس على تحملها ولا عقل لديهم يطيقها فكان من صالحهم حجبها ومن منفعتهم سترها. وفي كلا الامرين من اعطاء ومنع حكمة بالغة يرجع نفعها العظيم الى الانسان نفسه .

وعليه فاذا كان الانسان لا يعلم متى يموت واين يموت ولم يستطع ان يعلم كيف يأمن من مفاجأته فلا يستعد لملاقاته ولم يرقب وروده . وهل يأمن من الموت إلا من غلبت عليه الغفلة وارتكس في الموبقات حتى اصبح أعمى اصم ابكم ، لم يعبأ بارشاد العقل ولا يهدى الرسل ولا بعبر الكائنات ، فتراه والحال هذه كأنه آمن مطمئن من هجوم الموت عليه ومفاجأته إياه غير خائف من هول الحساب ولا مكترث بجزاء محكمة العدل الآلهي يوم لا ناصر له ولا شفيع ، وهل هـــذا إلا حمق وجهل أجارنا الله منهما.

لذلك قال الامام عليه السلام : ان هؤلاء الحمقاء الجهلاء الذين حادوا عن مدرجة الاكياس العقلاء ولم يلتفتوا الى عاقبة الآخرة ولم يحسبوا لملاقاة الموت أي حساب كانوا كمن هو آمن من الموت ولم يخش الحرمان من المكافاة ولم يخف العقاب يوم القيامة غافلين عن ان الموت لم يأتهم اختياراً ولم يطرقهم باستئذان . قال تعالى (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

فتباً لعقولهم السخيفة وتعساً لهم فانهم لا يفقهون .

التحذير من يوم الآخرة

قال عليه السلام : يا ويلهم ما اشقاهم واطول عناهم واشد بلاهم

الويل لغة هو الهلاك والحزن والمشقة والبلية ويأتي بمعنى التفجع ايضاً ، وهو كلمة تطلق على كل من وقع في عذاب او هلكة يستحقها ، اما اذا وقع في احدهما ولم يكن مستحقاً قيل له ويح والويح زجر لمن اشرف على الهلكة ، وقد يراد من كلمة (ويل) واد في جهنم او هي كناية عن شدة العذاب . اما حرف النداء قبل ويل كقولهم يا ويلاه فالمراد به مدلول الكلمة فيكون المعنى إذن ، ياحزني ويا هلاكي احضرا فهذا وقتكما واوانكما ، وذلك لشدة ما يعرض للمنادى من الامر الفظيع والندم الشديد اللذين يهونان عليه حضور الحزن والهلاك ليتخلص مما هو فيه . فقولهم يا ويلهم تفجع لحالهم مما يحل بهم من المشقة والعناء والبلاء في الآخرة . أما كلمة (ما) في قوله (ع) : ما اشقاهم فهي للتعجب واستعظام الشقاء الذي سوف يرونه بحرمانهم من السعادة الابدية . ومعنى الشقاء هو المضرة اللاحقة بصاحبه بسبب سوء صنعه في الدنيا وسوء عاقبته في الآخرة .

ولا شك ان سبب هذا الشقاء هو الحمق والجهل وان الجهل هذا لا يحصل إلاّ من خلو النفس من العلم بالواقع او للاعتقاد بالشيء على خلاف ما هو عليه ، او بفعل الشيء على خلاف ما من حقه ان يفعل ، سواءاً كان هذا الفعل عن اعتقاد صحيح اوفاسد ، كمن ترك الصلاة عامداً مثلا وامثال ذلك ، وهذا هو معنى الشقاء هنا ،

يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم .

أما العناء فهو التعب والمشقة ، والبلاء هو الاختبار في الخير والشر معاً لقوله تعالى : «ونبلوكم بالخير والشر فتنة» ـ ومن معانيه الغم الذي يبلي الجسم وهذا المعنى هو المقصود في قول الامام عليه السلام واطول عناهم واشد بلاهم فكأنه عليه السلام قال : متفجعاً ومتعجباً ومستعظماً ما يؤل اليه امر هؤلاء الذين حادوا عن الطريق الواضح وسلكوا مسالك الارجاس الانجاس وتبعوا شياطينهم وطواغيتهم ، من الحزن والهلاك والمشقة والبلاء مضافاً الى حرمانهم من السعادة وطول محنتهم وشدة غمهم الذي يبلي الاجسام ويحرق العظام منهم في الآخرة وذلك يوم القيامة يوم لا يغني ولا ينفع مولى عن مولى شيئاً والمولي هو الولي او الصاحب او الناصر او القريب او الجار او الحليف او المحب او العبد او التابع او النزيل او الشريك او المالك ، أي لا يفيد كل هؤلاء في ذلك اليوم عن مولى مثله شيئاً في محكمة العدل الآلهي ويوم الجزاء الصادق العادل ولا هم ينصرون بغيرهم إذ الحكم يومئذ لله وحده لا يظلم الناس فيه بل هم أنفسهم يظلمون بمعصيانهم ومخالفتهم للرسل والنذر والحجج الواضحة والآيات الدامغة والعقل .

نعم لا ينجو في ذلك اليوم من عدله تعالى إلا من رحمه الله بالعفو عنه ورفع العقاب او بقبول الشفاعة في حقه من المؤمنين الذين لا يشفعون إلا لمن ارتضى ، رزقنا الله شفاعة الشافعين من آل محمد صلى الله عليه وآله وجعلنا من المرحومين غداً .

بكاء المفضل وبشارة الإمام عليه السلام له

قال المفضل : فبكيت لما سمعت منه ، فقال عليه السلام : لا تبك تخلصت إذ قبلت ونجوت إذ عرفت :

قال المفضل : فبكيت لما سمعت منه من هول الآخرة وما يؤل اليه امر هؤلاء العاصين ومجازات عاملي الشر ، إذ كان كلامه مذكراً وبيانه موعظة واعتباراً ينبه من الغفلة ، ويصحي من السكرة ، ولا مناص لمن يسمعه ويصغي اليه إلا ان تجري عينه خوفاً من الله ، ويخشع قلبه رعباً ورهباً ، لذلك فانه عليه السلام لما رآني ابكي وشعر بما اعترى قلبي من الفزع والرعب من أهوال يوم القيامة وما يرى العاصون من دقة الحساب والعدل في السؤال والجواب في يوم الجزاء على الاعمال قال عليه السلام : لا تبك يا مفضل فقد تخلصت أي وجدت طريق الخلاص مما تخشى والنجاة مما تخاف وذلك بسبب قبولك لما القي اليك وتصديقك لما سمعت ، فان قبول الشيء والتصديق به لا يحصل إلا بعد تصوره والتصور لا يكون الا بعد توجه الفكر اليه ، وتوجه الفكر لا يكون توجهاً حقيقياً الا بعد صفاء الضمير وتجنب العناد وانحاذ العقل والوجدان مركبين يسير عليهما الى طريق النجاة والخلاص ، ومن كان هذه حاله مع قبوله لما القي عليه امامه عليه السلام فلابد وان يكون صدق أقوال امامه ، ومن صدق اقوال الامام الذي تجب طاعته والتي لم يلقها عليه من نفسه بل هي عن آبائه وأجداده عليهم السلام عن جدهم النبي (ص) الذي لا ينطق عن الهوى ان

هو الا وحي يوحى أقول من كان هكذا فلابد وان يكون بلاشك فدوجد نهج النجاة وطريق الخلاص مما يخشى ويخاف ، ومن وجد ذلك واتضحت لديه مسالكه ومعالمه ثم سار فيه غير ناكس ولا منحرف عنه ، فقد كان من الفائزين الناجين الذين اتخذوا مدرجة الاكياس مرقاة للنعيم يوم الحساب ويوم لا ينفع الانسان سوى عمله واعترافه بما جاء به الانبياء والرسل عن الله تعالى وسوى معرفته بما خلق لأجله وهي المشتقة من معرفة الله تعالى الموجبة لعبادته وحده دون سواه من شريك او ندمن خلقه . قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) أي ليعبدوا عن معرفة وتفكر وتعقل لا عن اتباع وتقليد .

إبتداء الكلام

ثم قال عليه السلام : ابتدىء لك بذكر الحيوان ليتضح لك من امره ما وضح لك من غيره

قال المفضل : ولما سكن بكائي واطمئن قلبي بما بشرني به سيدي ومولاي ، وظهرت على وجهي آثار السرور وزالت عنه علائم الكآبة والحزن قال عليه السلام : الآن نشرع فى بيان ما أتينا لأجله وننجز ما وعدناك به ، من ذكر الأدلة على وجود الخالق وحكمة الخلقة وتدبيرها ثم ردّ القائلين بالاهمال ومنكري العمد والقصد في انشاء هذا الكون وما فيه ونبدأ لك بذكر الدلائل الظاهرة في الحيوان وبيان الحكم التي اودعها فيها خالقها الحكيم العالم القادر ، ليتضح لك من مودعات بدائع الخلقة وعظيم التدبير واتقان الصنع ما يثبت به ايمانك ويسكن اليه قلبك وتقوى به حجتك كما اتضح لديك وادركته وعرفته من غيره أى بيان حكمة خلق الانسان (كما مر عليك في المجلس الاول) فانك اذا عرفت ما في الحيوان كما عرفت ما في الانسان ثم امعنت النظر واستعنت بالفكر الصحيح فيما اقوله لك وتعقلت كلما اذكره ، أيقنت بالفطرة والعقل ان لهذا العالم الفسيح الوسيع وهذا الخلق العظيم خالقاً حكيماً عليما قادراً غنياً فعالا لما يريد قاصداً فيما خلق مختاراً فيما انشأ لطيفاً فيما ابدع ، لا يضيره الجاحدون ولا يضره المنكرون ولا يقف دون ارادته الحكيمة كل جبار طاغ عنيد فسبحانه من مبدع قد عظمت آلاؤه وظهرت آياته وجلت نعمه ،

أبنية أبدان الحيوان

قال عليه السلام : فكر في ابنية ابدان الحيوان وتهيئتها على ماهي عليه

كثيراً ما يكرر الامام عليه السلام في اول كل موضوع يمليه على الفضل كلمة (فكر) ومعلوم ان ذلك لافت نظره واعمال فكره فيما سيلقيه عليه من الحجج والبراهين التي سينتفع منها ولا تذهب عليه سدى ، والفكر هو اعمال النظر في الشيء ليحصل على مجهول . قال الغزالي : حقيقة التفكر طلب علم بديهي عن مقدمات موصلة اليه ، كتفكرنا في الدنيا وانها فانية وان الآخرة باقية فانه يحصل له علم بان الباقية خير من الفانية ، وهذا مما يبعث على العمل للباقية فالتفكر سبب لهذا العلم ، وهذا العلم يقتضي حالة نفسانية وهي التوجه الى الآخرة ، وهذا يقتضي العمل لها ، وقس على ذلك . فالتفكر إذن ينور القلب ويخرج من الغفلة ، وبهذا يكون اصلا لجميع الخيرات (٥١).

قال المحقق نصير الدين الطوسي [ره] التفكر سير الباطن من المبادى الى المقاصد ، ولا يرتقي احد من النقص الى الكمال إلا بهذا السير ، أما المبادى فهي الافاق والانفس ، بأن يتفكر الانسان في اجزاء العالم وذراته وفي الاجرام السماوية العلوية والافلاك والكواكب وحركاتها واوضاعها ومقاديرها واختلافاتها ، مقارناتها وتأثيراتها وتغييراتها ، وفي الاجرام السفلية وترتيبها وتفاعلاتها وكيفياتها ومركباتها ومعدنياتها وحيواناتها ، وفي اجزاء الانسان واعضائه من العظام والعضلات

والعروق والاعصاب وغيرها مما لا يحصى كثرة ويستدل بها وبما فيها من المصالح والمنافع والحكم على كمال الصانع وعلمه وقدرته وعدم ثبوت ما سواه (وهذا هو من المقاصد) وبالجملة فان التفكر فيما ذكر ونحوه من حيث الخلق والحكمة والمصالح يكون اثره العلم بوجود الصانع وقدرته ، ومن حيث تغيره وانقلابه وفنائه بعدوجوده يكون أثره الانقطاع عنه والتوجه بالكلية الى الخالق الحق (انتهى)

قال الجاحظ في الحيوان : العالم بما فيه حكمة وهي على ضربين . فضرب يكون فيمن لا يعقلها ولا يتدبرها ويتدبر عاقبتها كما هي في الجماد والنبات والحيوان عدا الانسان ، وضرب أودعت فيمن يعقلها ويتدبرها كما هي في الانسان العاقل . وكلاهما دليل يستدل به وعبرة يعتبر بها الانسان العاقل المفكر . وكلا الحكمتين في هذا العالم بيان ناطق لمن استنطقه وبرهان واضح لمن استوضحه (الى ان يقول) وذلك ليعلم الانسان ان الله تعالى قد جعل هاتين الحكمتين في العالم ازاء عيون الناظرين وبجاه اسمـــاع المعتبرين ، ثم حث على التفكير والاعتبار وعلى الانتباه والازدجار وعلى التعرف والتبيين ليكون ذلك مذكراً ومنبهاً ، فالفكر ينشيء الخواطر (انتهى)

وعلى هذا فالتفكر يكون من أعظم العبادات قدراً وأشرفها اثراً وأفخمها رتبة وأرفعها درجة ، ولذلك وقع الأمر به في مواضع كثيرة من القرآن ، واستفاضت به الاخبار المتواترة عن النبي ﷺ وآله عليهم السلام . كقوله عليه السلام : تفكر ساعة خير من عبادة سنة وقيل سبعين سنة . وكقول امير المؤمنين عليه السلام : التفكر يدعو الى الخير والعمل . وكقول الصادق عليه السلام أفضل العبادة ادمان التفكر في الله أي في قدرته . وكقول الرضا عليه السلام : ليست العبـــادة كثرة الصوم

والصلاة انما العبادة التفكر في امر الله عز وجل ، وعن النبي ﷺ ايضاً : تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ، وعن ابي جعفر عليه السلام إياكم والتفكر في الله ولكن اذا اردتم ان تنظروا الى عظمته فانظروا الى عظيم خلقته واذا قيل تفكروا في قدرة الله فمعناه التفكر في آثار قدرته وفي آياته .

وهنا اود ان اذكر لك أقوال بعض علماء هذا العصر وعقلائهم ممن جنحوا الى الحق واتبعوا العقل السليم في التفكر في خلق الله لتوحيد الله .

قال الكاتب المنصف كما في مجلة الدكتور : هل تريد ان ادلك على طريق السير للايمان بالله وبعظيم قدرته وبديع خلقه . ألق نظرة على علم الاجنة ثم انظر الى البويضه ذات الخلية الواحدة كيف تصير علقة ذات خلايا عدة ، ثم تصير مضغة ذات خلايا اكثر عدداً ثم انظر كيف تصير هذه المضغة بعد ذلك جنيناً صغيراً قد فصلت خلاياه الى طبقات ثلاث يخرج من كل طبقة منها مجموعة من الانسجة متشابهة في اول الامر حتى اذا تم نموها واستواؤها واتخذت سمتها ، صارت مختلفة اشد الاختلاف ، ثم انظر كيف يتدرج هذا الجنين في بطء واتساق عجيب فيمر في هذه السلسلة المنتظمة التي تمثل تطور الخليقة في سلم الارتقاء الذي يشمل جميع الكائنات الحية ، حتى اذا ما تهيأ له كامل نموه وتكوينه صار هذه الآلة الرائعة ذات الاذن الصغية والعين المبصرة والقلب النابض والعقل المدبر والاطراف المتحركة .

براه بارىء الكائنات وابدعه بديع السموات والارض فتبارك الله احسن الخالقين .

ثم انظر كيف يرث هذا المخلوق من الصفات والملامح والالوان ما يرث على

. . . . . .

نهج ثابت لا يتغير ، وطبقاً لقوانين الوراثة التي كشف عنها العلم الحديث نصفها عن أبيه ونصفها عن امه ، ومنها ما يسيطر على الآخر فيخفيه ، ثم انظر كيف تتماثل هذه الصفات والملامح في الاخوة الذين يحملهم هذا الرحم المرة بعد المرة مما يحير العقول ويخلب الألباب ، الى غير ذلك من امر التوأم وكيف يحدث ، أهل هو عن طريق الأب أم الأم أم عنهما ؟ ولماذا ينجب بعض الناس ذكوراً وبعضهم اناثاً ولماذا يعقم الآخرون ، وكيف ان الله يهب لمن يشاء اناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، وكلها من العجب العجاب ، ومما لم يصل اليه العلم مع بلوغه دقة البحث والاستقصاء (انتهى)

وقال آخر : لقد ادرك السابقون هذا الكون ادراك رؤية سطحية ، ولم يدركوه إدراك رأي وتعقل وتدبر فملكت نفوسهم رهبة العاجز الجاهل فعبدوا ربهم عبادة العاجز الجاهل ولكن في هذا العصر المتنبه عصر العلم والفكر والوعي أدرك الناس هذا الكون إدراك رأي وعلم ، فكان الواجب العقلي والوجداني والعلمي يدعوهم الى ان يعبدوا ربهم عبادة العالم القادر ، فان هذا الكون لا يمكن أن يرتد من كمال الى نقص بل هو كامل منذ ان كان ، أما ما نتخيله من نقص او تغيير فهو لنقص فينا نحن سكان هذا الكون لانا لما كنا لم نتعقل بعقولنا المحدودة حكمة الكامل المطلق ، ولم ندرك بمدارکنا القصيرة مدى اتقان ذلك الخلق الجبار العجيب ، عزونا ما نراه من النقص اليه لذلك فقد امر الله تعالى وحث عباده مراراً عديدة في قرآنه المجيد على التفكر في خلق السموات والارض والآفاق والانفس ليتفرجوا فيدركوا ويعجبوا فيدهشوا ثم يحملهم ذلك الادراك والعجب والدهش على السكينة امامه والتعبد له

ذلك التعبد الذي هو ثمرة العلم وثمرة الفن وثمرة العمل بل ثمرة الحياة الابدية مع الله تعالى ، إذ يستطيع الانسان المفكر المتطلع ان يذوق طعم الحياة الحقيقية ، وان يمتص من ذلك التذوق عصارة اليقين ، وان يروى بزلال الايمان بالله العظيم وبذلك يشهد بصحة اوضاع ما وضع فيه وابداعه واتقانه ، ويعترف بالقوة الالهية التي تمسك السموات والارض ان تزولا ، فلا ينكر الجمال والنظام والدقة والقوة فيه عندما ينظر نفسه ويرى غيره ، فيعي الذرة والمجرة وما بينهما (انتهى)

وقال (انشتين) وهو من اكبر علماء هذا العصر في الكون وظواهره واولاهم باتباع ما اعتاد عليه بعض علماء الغرب ومقلدوهم من الشرق من اغفالهم ذكر الله وعدم التفكر في الآيات والعبر :

إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون هو اقوى حافز على البحث العلمي وانبله وان ديني هو اعجابي في تواضع تلك الروح السامية التي لا حد لها ، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع ادراكها عقولنا الضعيفة العاجزة وهو ايماني العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حينما نظرنا في هذا الكون المعجز للافهام .

إن هذا الايمان يؤلف عندي معنى (الله)

وقال ايضاً : ان اعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاظلام ، وإن الذي لا تجيش نفسه لهذا ، ولا تتحرك عاطفته حي كيت ، انه خفاء لا نستطيع ان نشق حجبه وظلام لا نستطيع ان نطلع فجره ، ومع هذا فنحن ندرك ان وراءه شيئاً هو الحكمة

. . . . . .

ونحس وراءه شيئاً هو الجمال وهي حكمة وجمال لا تستطيع ان تدركهما عقولنا القاصرة إلا في صور لها بدائية اولية .

وهذا الادراك للحكمة وهذا الاحساس بالجمال في روعة هو جوهر التعبد عند الخلائق (انتهى)

أقول ومن هنا نجد الامام عليه السلام يقول للمفضل عند شروعه في البيان (فكر في ابنية ابدان الحيوان) فان الابنية جمع بناء والمراد من ذلك هو تركيب ابدان الحيوان من عظام واعصاب وغضاريف وشحم ولحم وساير الاعضاء الخارجية وكذلك الداخلية كالدماغ والقلب والرئتين والكبد والمعدة والكلى الى غيرها . والبدن هو هذا الهيكل المركب من هذه الأعضاء وغيرها ، اما الحيوان فهو كل ذى روح مدرك متحرك يطلب الغذاء والنجاء .

وإن من البديهي المسلم ان هذا العالم الذي نعيش فيه ويعيش فيه كل كائن حي ليضم بين ارجائه الوفاً والوف الالوف من الحيوانات مختلفة الاشكال والالوان والهيولى وتكاد أن لا نعرف اكثرها ، ولكن الله تعالى إمرنا بالتفكر في خلق هذه الكائنات حسب مداركنا وعلى قدر عقولنا المحدودة ، لعلنا نقف بانفسنا على بعض اسرار تركيبها ونموها واحوال معائشها ، وبذلك ما يزيدنا ايمانا بقدرة خالقها الحكيم ، كما يمنحنا من الحكمة والعبر والوعظ ما يقربنا به الى الخير وسواء السبيل .

ثم قال عليه السلام : وتهيئتها على ما هي عليه ، أي اعطاء كل نوع من الحيوان ما يحتاج اليه من الاعضاء ، وجعل كل عضو منها في الوضع اللازم له وتهيئة هذه

. . . . . .

الاعضاء لعمل خاص من أعمال البدن الضرورية لحياته ، فان الناظر الى هذه الابنية والتراكيب في الحيوانات والمفكر في اعدادها وتهيئتها الى هذه الاعمال الضرورية ليراه مع كثرة انواعه واصنافه يتألف من طوائف مختلفة متميزة بعضها عن بعض ولكن يجمع كلامنها شيء من الشبه فمثلا يجد لاقدام بعضها خمسة اصابع أو مخالب كالانسان وفي البعض الآخر اربعة كالخنزير والفرس البحري وفي الثالث ثلاثة كالكركدن وفي المجترة ذوات الظلف من البقر والغنم اثنتين وفي ذوات الحافر كالخيل والحمير واحد ، وقد تستحيل الاصابع في البعض الى آلات طيران شبه الاجنحة كالخفاش ، ثم يجد منها ما تكون اسنانها مذربه حادة كآكلة اللحوم او قواضم وطواحين مثل آكلة العشب ، ومنها ما طالت ثناياه واعدت لقرض الخشب ونحوه كالجردان والارانب ، ومنها مالا اسنان لها كالضفادع ، ومنها ما طالت ثناياها العليا فقط كالفيلة ، ومنها ما كسيت جلودها شعراً كاللمز او صوفاً كالغنم او وبراً كالابل او ريشاً كالطيور ، او خرشفاً كالسمك ، او مادة قرنية صلبة كالسلحفاة والتماسيح او قشراً كالسرطان او صدفاً كذوات المحار من الودع والحلزون ، ومنها ما خلقت بادية الجلد كالديدان وامثالها . كما يجد الناظر منها ايضاً الجماء والقرناء والمجترة وغير المجترة وما تلد وما تبيض ، وما تنقسم على نفسها لتكثير نسلها كاقسام الجراثيم الى غيرها مما لا تعد ولا تحصى .

وهناك تقسيم آخر ذكره الجاحظ للحيوان حيث يقول : الحيوان على اربعة اقسام [١] ماش [٢] طائر [٣] سابح [٤] منساح أي يمشي على بطنه ، وكل طائر ماش ولا عكس ، والماشي على اربعة اقسام [١] انسان [٢] بهيمة [٣] سبع

. . . . . .

[٤] حشرة ،والطائر ثلاثة اقسام : [١] سبع [٢] بهيمة [٣] هجج ، وسباع الطير ضربان [١] العتاق والاحرار والجوارح [٢] البغاث وهي كل ما عظم من الطير سبعاً كان او بهيمة .

هذا هو ما قسمه علماء الحيوان فى العصور السالفة ، فقد كانوا ينظرون الى مظاهر الحيوانات ويشاهدون خصائصها بالعين المجردة .

أما علماء هذا العصر فانهم قسموا الحيوان عموماً الى قسمين : الفقري وغير الفقري .

فالفقري ما كان له هيكل عظمي يقوم اساسه على الصلب أي (العمود الفقرى) الذى هو عبارة من مجموع فقار الظهر وهي عظام اسطوانية الشكل مثقوبة الى جانب منها متضامه طولا بحيث تتكون منها سلسلة قابلة للانحناء قليلا ومملوءة جوف هذه الثقوب المتصلة بنخاع متفرع منه كثير من الاعصاب الناقلة للاحساس والارادة من الدماغ الى سائر الاعضاء في الجسم . وهذا الهيكل العظمي الفقارى هو الذى يعطي الجسم قوامه ويحافظ فيه على الاعضاء الحساسه كالدماغ والنخاع الشوكي والعينين ويكون لها بمثابة دعامة للتحرك والاسناد ،وغير الفقرى ما ليس له هيكل عظمي .

وينقسم الفقرى الى خمسة اقسام [الاول] الثديي وهو الذى يلد ويرضع صغاره ويكسو جلده شعر كثير او قليل [الثاني] الطيور وهي كل ما كسى بالريش ولا يلد بل يبيض ، فالخفاش ليس بطائر لانه يلد والنعام طير وان لم يطر لانه يبيض [الثالث] الزواحف وهي مما تبيض ويغطى جلدها زبل (مادة صلبة) صفيق او

رقيق [الرابع] وهي ذوات الحياتين (مائية هوائية) وهي تبيض وقبل ان يكمل تكوينها تمر باطوار من ضروب الحلقة كالضفادع وهي عارية الجلد [الخامس] السمك وهو يعيش في الماء ويكتفي باستنشاق الهواء الذائب في الماء بالخياشيم وجلده مغطى بالحرشف . فغرض البحر ليست بسمك وان سبحت في الماء لأنها تتنفس بالهواء الجوى ولها رئتان وهي تلد ولا تبيض .

أما غير الفقرى : فعلى اصناف خمسة ايضاً (الاول) الحيوان الرخو وهو الذى يحيط بجسمه غشاء رقيق يسمى (البرنس) وهو مثل ذوات المحار والاصداف من الحلزونيات والودع (الثاني) الحيوان القشرى مثل السرطان (الثالث) امثال العناكب والعقارب ولها ثمانية ارجل (الرابع) الحشرات وهي التي لها ستة ارجل واربعة اجنحة (الخامس) الديدان .

هذه هي اقسام الحيوان حسب انظار علماء الحيوان قديماً وحديثاً ذكرناها لك على وجه الاجمال طلباً للفائدة ، مع العلم انها مهما تنوعت التعاريف واختلفت البيانات فانها لم تكن في الحقيقة شاملة شمولا حقيقياً واقعياً لكافة انواع الحيوان واصنافه ، ذلك لكثرة أنواعه اولا وللاختلاف الذى يقع حتى فى الصنف الواحد منها ثانياً فانا نرى الاختلاف الظاهر حتى في افراده .

وهذا مما يجعلنا لا نجزم بصحة حصرها بتعريف من التعاريف او شمول تقسيم معين لها فسبحان الخالق العظيم .

بـيان وصفها

قال عليه السلام : فلا هي صلاب كالحجارة ، ولو كانت كذلك لا تنثني

ان كل مصلح ومربي ومعلم مرشد يجب ان يخاطب اتباعه ومن يريد ارشادهم وتعليمهم على حسب مداركهم ، وان يتكلم معهم بلغتهم الخاصة التي يفهمونها حتى لا ينتفي الغرض المطلوب من بيانه ولا تذهب تعاليمه وإرشاداته سدى ، هـذا اذا كان المرشد من سائر الناس ، فكيف بالامام الذي هو المرشد العالمي والمربي الانساني والمسؤول بعد النبي الكريم عن هداية الناس وإرشادهم الى محجة الصواب والوصول بهم الى الهدف الاسلامي السامي ، وانتشالهم من هوة الجهل والغواية الى ساحة السلامة والسعادة بالتوحيد والايمان ، لذلك تراه عليه السلام لا يألوا جهداً في بيان اسمى المطالب وارفع الغايات بابسط العبارات واسهل الاساليب مع ملاحظة ما عرف ونشر في عصره من المعارف ، وبما يمكن ان تدركه عقول اهل ذلك العصر فهو عندما اراد ان يذكر بناء ابدان الحيوان وتركيبها ، اجتهد في ان يريهم ما تصل اليـه مداركهم المحدودة من مظاهر التركيب وما يبدو للعيان منها فقال عليه السلام : فلا هي صلاب كالحجارة ، ثم ذكر حكمتها بقوله عليه السلام : ولو كانت كذلك أي متحجرة صلبة لما امكنها ان تنثني الى اطرافها او ان تتحرك الى جوانبها او ان تتصرف في اعمالها كالمشي والاكل والشرب وتناول الاشياء والرفع والوضع والدفع والجذب واشباه ذلك كما انها لم تخلق رخوه على غاية اللين والرخاوة إذ لو كانت كذلك لما استطاعت

ولا تتصرف في الاعمال ، ولا هي على غاية اللين والرخاوة فكانت لا تتحامل ولا تستقل بانفسها ، فجعلت من لحم رخو ينثني تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب

ان تعمل أي عمل او ان تنجز أي حاجة من ضروريانها بنفسها دون الاستعانة بغيرها ، لأن قضاء الحوائج يحتاج الى حركة والمسترخي لا يمكنه ذلك ولأجله سيبقى عاطلا لا يصلح لكل شيء ، وكلا هذين التركيبين ينافي الحكمة والغرض المطلوب من الخلقة ، وحاشا للخالق الحكيم ان يخلق عبثاً ودون قصد (سبحانك ما خلقت هذا باطلا) .

إذن فقد اقتضت الحكمة الآلهية ان يركبه من لحم رخو ينثني عند ارادة الحركة والعمل وحيث ان الجسم الرخو لا يمسك ولا يستقيم فقد داخلته عظام صلبة لذلك ، ولما كانت العظام الصلاب لا تستقيم وسط ذلك الجسم الرخو أي اللحم احتاج لان يمسكها العصب فيربط بعضها ببعض وان يشد فواصلها ومفاصلها باربطه من عروق رفيقة دقيقة كالخيوط تسهيلا لحركتها لدى المشي والالتواء ، ثم لما كانت العظام عند اتصالها ببعضها لا سيما في المفاصل يرشك ان يحك بعضها ببعض فيؤلم جعل الخالق الحكيم بينها في المفاصل غضاريف هي وسط بين صلابة العظام ورخاوة اللحم لتعتدل الحركات دون ألم او غير ذلك ثم اراد الله تعالى حفظ هذه المجموعة من الاعضاء فغلفها وسترها بجلد يشمل كل البدن ويحفظ هيكله وصورته ، وقد رأى الامام عليه السلام ان يساير مدارك افراد العامة من الناس ليفهمهم فيصور لهم ذلك بما يعرفون وبما يستعملون من لعب وتماثيل مبتذلة لديهم ، فقال : واشباه ذلك هذه التماثيل التي تعمل من العيدان وتلف بالخرق وتشد بالخيوط وتطلى فوق ذلك بالصمغ ، فانك ان حققتها رأيت تركيبها يشبه تركيب البدن الحيواني ، إذ تكون العيدان

وعرق نشده وتضم بعضه الى بعض وغلفت فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله.

بمنزلة العظام التي تقيم هيكله والخرق بمنزلة اللحم المحيط بالعظام والخيوط التي تشد تلك العيدان وتحفظ الخرق عليها بمنزلة العصب ، والعروق التي تشد العظام وتربط بعضها ببعض والطلاء الصمغي العام بمثابة الجلد المحيط بكل البدن .

هذا هو التشبيه المقرب للذهن ، والمثل الذي جعله الامام عليه السلام قياساً للناس في معرفة بدن الحيوان ، ثم بعد هذا التشبيه والتوضيح خاطب عليه السلام هؤلاء المنكرين لوجود الخالق المبدع قائلا : أفهل يجوز عندكم أم هل يدور بخلدكم ان مثل هـــذه التماثيل كانت قد حصلت دون عامل لها ؟ وهل وجدت عيدانها وخرقها وخيوطها وصمغها من غير ان يحضرها احد ؟ فان قلتم نعم يجوز ذلك كذبتم أنفســكم وكذبكم كل عاقل بل كل ذى اقل شعور ، إذ كيف يمكن تصور وجودها وحدوثها بالاهمال وبدون قصد قاصد وارادة مريد عارف بما يريد . وان قلتم لا يجوز حصولها بالاهمال وبدون عامل لها وموجد لاجزائها ، مع انها تماثيل تافهـــة تصنع من اجزاء بسيطة ثم اعترفتم بذلك ، كان بالحري الاولى ان لا تجوزوه في اجزاء الحيوان وتركيبه لا سيما وهو ذو روح متحرك ، وكان العقل والوجدان يوجبان عليكم الاعتراف بوجود صانع لها حكيم فى صنعه لم يوجد شيئاً عبثا ولم يصنع ما صنع جزافاً بل أبدع فى صنعه عن حكمة وقصد وغاية .

وهنا ناسب ان نذكر لك اتماماً للفائدة مجمل ما ذكره العلم الحديث فى بيان بنية الحيوان واصل تركيبه فنقول :

كان القدماء يدرسون بنية الحيوان حسب مشاهداتهم الظاهرية بالعين المجردة الى ان ظهر (المجهر) أي (الميكرسكوب) فى أوائل القرن التاسع عشر

واشباه ذلك هذه التماثيل التي تعمل من العيدان وتلف بالخرق وتشد بالخيوط وتطلى فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام والخرق بمنزلة اللحم والخيوط بمنزلة العصب والطلاء بمنزلة الجلد فان جاز ان يكون الحيوان المتحرك حدث بالاهمال من

فتمكن العلماء بواسطته من اكتشاف العضويات الصغيرة المتركب منها بدن الحيوان والتي لم تكن ترى بالعين المجردة واول من ادرك ذلك بواسطة المجهر رجل هولندي يدعى (انطون فان لوينهوك) فى سنة ١٦٠٠ تقريباً حيث اكتشف البكتريا ، أى الحيوانات الابتدائية ، وبعد زمن قليل لاحظ (روبرت هوك) الانجليزي بالفحص المجهري ان هذه المادة المكتشفة قبله تتكون من ردهات صغيرة جداً فاسماها (خلايا) او (حجيرات) ونشر اكتشافه في سنة ١٦٦٥ ثم اكتشف بعده فى سنة ١٨٣٣ الدكتور (براون روبرت) ان وسط تلك الحجيرة (نواة) وفي سنتي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ توصل العالمان الالمانيان وهما (شلايدن) و (شوان) الى ان جميع العضويات مركبة من حجيرات وخلايا ، وانها تتكون اولا من حجيرة واحدة ثم تنقسم هذه الحجيرة الى عدة حجيرات . وفي سنة ١٨٤١ اظهر العالم الالماني (ماكس شولز) ان الحجيرة مطلقاً تحتوى على مادة فى داخلها سميت (بروتوبلازما)

وهكذا بقى العلماء يبحثون ويدرسون هذه الحجيرة المهمة في تركيب الاجسام حتى ظهر لهم ان جميع الكائنات الحية تتركب من هذه المادة اعني (بروتو بلازما) المحتوية عليها الحجيرة والتي سماها العلامة (هكسلي) : الاساس الطبيعي للحياة ذلك لانها مرجع جميع المظاهر الحيوية فى العضويات .

و (البروتو بلازما) مادة نصف شفافة محاطة بقشره الخلية [الحجيرة] ومحتوية على حبيبات ومن جملتها [النواة] . ويتركب سائلها من العناصر الآتية :

غير صانع جاز ان يكون ذلك فى هذه التماثيل الميتة فان كان هذا غير جائز فى التماثيل فبالحري ان لا يجوز في الحيوان .

---

١ ـ الاكسجين ٦٥٪

٢ ـ الكربون ١٨ر٥٪

٣ ـ الهيدروجين ١١٪

٤ ـ النيتروجين ٢ر٥٪

أما الباقي وهو ٣٪ فيحتوى على الفسفور والحديد والكلور والبوتاسيوم والمغنيسيوم والصوديوم والكالسيوم

أما القسم المحيط بالنواة فيعرف باسم (سايتو بلازم) وتتميز فيه طبقتان إحداها خارجية وتدعى « اكيتو بلازم » واخرى داخلية وتسمى « آيتو بلازم ».

أما النواة : فهي ايضاً ماده بروتوبلامية كثيفة القوام صلبة مفصولة عن السائل بغشاء رفيق ، ويوجد فى داخلها سائل تسبح فيه شبكة من الالياف الدقيقة الحساسة كما يوجد فيها ايضاً جسم كثيف نسبياً يسمى (نوية) مصغرة نواة ، وهذا هو اهم ما فى النواة حيث به يحصل تكاثر النواة وتغذيتها الى كثير من الاعمال المنوطة بالنواة .

وعلى هذا الاساس العلمي الحاصل بالبحث العلمي والتتبعات التجربية قال علماء الحيوان اليوم .

ان المملكه الحيوانية الجبارة لتضم من الحيوانات ما يختلف بعضها عن البعض اختلافاً جلياً ظاهراً فى بناء اجسامها . فهناك ما يتألف جسمها من حجيرة واحدة مثل « الأميبيا » التي هي صغيرة جداً لدرجة انها لا يمكن ان تراها العين المجردة

او هنالك في الوقت نفسه حيوانات ضخمة كبيرة يتألف جسمها من آلاف بل ملايين الحجيرات كالفيل وامثاله .

فاعرف ذلك مجملا وتأمل في قدرة الخالق المبدع القادر العليم الحكيم وفكر في دقة صنعه وعظيم خلقه فسبحانه من جبار مقتدر .

الأنعام

قال عليه السلام : فكر يا مفضل بعد هذا في اجساد الانعام فانها

الجسد هو جسم كل ذي روح من انسان وحيوان وغيرهما ، والجسم اعم إذ يطلق على كل ذي ابعاد وهي الطول والعرض والعمق (او السمك والارتفاع) أما البدن فهو من الجسد عدا الرأس . والانعام جمع نعم والنعم عند اللغويين اسم جنس يدل على الابل والشاة ، ويرجع اليه ضمير المذكر والمؤنث على السواء ، لقوله تعالى : (ونسقيكم مما في بطونها) وفي محل آخر (في بطونه) . وعند الفقهاء تشمل الابل والبقر والغنم ، قال ابن الاعرابي : النعم الابل خاصة والانعام الابل والبقر والغنم . وفي تفسير القشيري للآية الكريمة : (اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاماً) انها الابل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير .

والخلاصة من مجموع التفاسير ان الانعام حيوانات كثيرة النفع عميمة الفائدة ، قد جعلها الله تعالى للانسان سهلة الانقياد ليس لها شراسة الدواب ولا نفرة السباع كما لم يخلق لها سلاحاً شديداً يخشى منه على الانسان كمثل انياب السباع وبراثن

حين خلقت على ابدان الانس من اللحم والعظم والعصب لعطيت ايضاً السمع والبصر ليبلغ الانسان حاجته ، فانها لو كانت عمياً وصماً لما انتفع بها الانسان ولا تصرفت في شيء من مآربه ثم صنعت الذهن والعقل لتذل للانسان فلا يمتنع عليه

الكواسر ، والسر في ذلك هو شدة الحاجة لها ولأجل هذه الغاية التي أرادها الخالق للانسان جعلها صبورة على التعب والجوع والعطش ذلولا تقاد بكل سهولة مفيدة له كالاوشر باً وركوباً وحمولة ، قال تعالى : (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) كما انه تعالى جعل هذه القوة الجسيمة التي منحها هذا الحيوان سلاحاً له به يأمن شر عدوه وتتقي الطوارىء لدى الضرورة . ثم لما كان طعامها الحشائش والنبات اقتضت الحكمة ان تكون ذات افواه وسيعة واسنان حداد واضراس صلاب لتقوى على طحن الحب ورض النوى الذي قد يحصل في بعض النباتات التي تأكلها .

وقد خلقت في تركيب ابدانها كالانسان أي من لحم وعظم وعصب وعروق ولا يفرق ذلك على الانسان إلا في شكل الاعضاء وحجومها وهيكلها ، كما اعطيت الحواس الخمس الظاهرة كلها ولكن بقدر محدود دون الانسان ، فهي ترى وتسمع وتشم وتذوق وتحس غير ان هذه الحواس كلها بقدر الحاجة الضرورية للحياة الحيوانية لا اكثر وبمقدار ما يستفيد منها الانسان ويبلغ بها حاجته ، وقد خص الامام عليه السلام بالذكر اثنين منها وهما السمع والبصر فقال عليه السلام : وأعطيت السمع والبصر ، وذلك لأهميتها ولأنهما اظهر من غيرها من الحواس ، ثم قال عليه السلام : لو كانت عمياً وصماً لما انتفع بها الانسان الخ ذلك لانها بدونهما لم تهتد الى الطريق التي تسير فيها ولا تسمع ما يريده صاحبها منها فتصبح جماداً او آلة عجماء لا تصلح لكل عمل من الاعمال وهذا خلاف الحكمة التي خلقت لأجلها ثم قال عليه السلام : ثم

اذا كدها الكد الشديد وحملها الحمل الثقيل . فان قال قائل انه قد يكون للانسان عبيد من الانس يذلون ويذعنون بالكد الشديد وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن . فيقال في جواب ذلك : أن هذا الصنف من الناس قليل ، فاما اكثر الناس فلا يذعنون بما تذعن به الدواب من الحمل والطحن وما اشبه ذلك ولا يقرون بما يحتاج اليه منه .

منعت الذهن والعقل الى آخر ما قال ! وهذه ايضاً نعمة اخرى من الصانع الحكيم لتذليلها وجعلها تحت تصرف البشر ليستفيد منها ، فانه تعالى : منع منها العقل المميز بين الحسن والقبيح والناظر الى العواقب ولم يمنحها الفطنة التي تدرك ما يكلفها به الانسان من ذلة الحمل والركوب ومن ألم الذبح الاكل ، فلو كان لها عقل وفطنة تدرك بهما كل ذلك لامتنعت بالضرورة عن الاذعان والتسليم لأرادة البشر وهنا لقائل ان يقول : ان هذه المهمة التي خلقت الانعام من أجلها من الاذعان للكد والحمل والركوب قد يؤديها الانسان بنفسه كما اذا كان له عبيد من الانس يذلون ويذعنون لكل تلك الاعمال وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن أي انهم يدركون ويذعنون وعليه فلا حاجة إذن لخلق الانعام من أجل هذه الغاية خاصة . فيقال في الجواب : إن هذا الصنف من الانسان وهم العبيد المذعنون قليل لا يعتد به وعليه فلا يمكنه ان يقوم بكل ما يحتاجه الانسان من هذا القبيل ، أما اكثر الناس فليسوا كذلك أي لا يمكنهم ان يذعنوا كما يذعن الحيوان من اعمال الحمل والطحن والركوب وأمثالها بل لا يستطيعون ان يقروا على ذلك لأنهم ﴿ اولا ﴾ لما كانوا لا يملكون تلك القوة والصلابة التي اعطيت للانعام لزم ان يقوم مقام الجمل الواحد او البغل الواحد مثلا عدة اشخاص لكي

ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الانعام بابدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الاعمال ، لأنه كان يحتاج بمكان الواحد او البغل الواحد الى عدة اناسي ،فكان

يؤدوا ذلك العمل الذى كان يقوم به ذلك الحيوان بانفراده ، وهذا بالطبع يشغل كثيراً من الناس ويستغرق اوقاتها حتى لا يبقى لديها فضل زمان او بقية اشخاص لأداء الاعمال الاخرى الضرورية للبشر في حياته من صناعة او زراعة او تجارة وأمثالها (ثانياً) ان الناس لو كلفوا باجراء امثال هذه الاعمال بدلا عن الحيوانات لكان يلحقهم من التعب الفادح في ابدانهم والضيق في اوقاتهم لتحصيل معاشهم مالا يطاق وبذلك تختل الحياة ويفسد العيش ، فكان من اللطف والحكمة ان خلقت هذه الانعام لهذه الغاية .

والآن يحسن ذكر هذه الانعام المقصودة في قول الامام عليه السلام من الابل والبقر والضأن والبغال والحمير مجملا :

الابل : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ويرجع اليه ضمير المؤنث لأن اسماء الجموع التى لا واحد لها اذا كانت لغير الآدميين يؤنث ضميرها ، واذا صغرت ادخلت عليها « الهاء »فنقول : ابيله ، وغنيمه ، وقد يجمع هذا الاسم على ﴿ آبال ﴾ والابل من الحيوانات عجيبة الخلقة (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) لأنه على ضخامة جثته وعظم هيكله سهل الانقياد طيعاً صبوراً على العطش الذى قد يصل به الى عشرة أيام ، كما انه يرعى كل نبت في البرارى والقفار ، وقد قيل فى سبب صبره على العطش انه لا مرارة له خلافاً لغيره من الحيوانات وفى سبب قوته وتمكنه من النهوض بالحمل الثقيل والبروك به هو طول عنقه ، والله على كل شيء قدير .

هذا العمل يستفرغ الناس حتي لا يكون فيهم عنه فضل لشيء من الصناعات مع ما يلحقهم من التعب الفادح في ابدانهم والضيق والكد في معاشهم .

والبقر : اسم جنس يقع على الذكر والانثى ، وانما تدخل عليه الهاء فيقال ﴿ بقرة ﴾ فللدلالة على الوحدة لا التأنيث وهو حيوان هادىء شديد القوة كثير النفع ذلولا ، لم يخلق له سلاح كما للسباع لانه لم يزل في رعاية الانسان الذى يدفع عنه كل ضرر ولو كان له سلاح لصعب ضبطه ، ومع ذلك فقد خلقت له قرون قد يستعملها للدفاع عند عدم وجود صاحبه وراعيه .

والضان : جمع ضائن ، وضائن اسم جنس لذوات الصوف من الغنم ، وانثاه ضائنه والجمع ضوائن وقيل هو جمع لا واحد له كالابل ، أما تسخير الانسان له واستفادته من صوفه ولحمه ولبنه فهو لا يحتاج الى بيان .

والحمار : ايضاً حيوان هادىء حمول يوصف بالهداية لسلوك الطرقات التي مشى فيها ولو مرة واحدة كما يوصف بحدة السمع .

والبغل : حيوان معروف وينتج من لقاح الفرس والحمار ولذلك ترى الصلابة الحمار وعظم آلات الخيل ، وكذلك شجيجه أى صوته فانه مولد من صهيل الخيل ونهيق الحمير ، وهو عقيم لا يولد له ومتوسط بين ذكاء الفرس وبلادة الحمار ولكن له صبر الحمار وقوة الفرس كما له هداية الحمار لكل طريق يسلكه ولو مرة واحدة وله احتمال الاثقال والصبر على طول الايغال .

هذا مختصر ما أردنا بيانه من امر الحيوان ﴿ الانعام ﴾ فتأمل فيه واعتبر .

آكلة اللحوم وآكلة النبات والمشتركة

قال الامام عليه السلام: فكر يامفضل في هذه الاصناف الثلاثة من الحيوان

يقسم الحيوان الى اقسام واصناف كثيرة باعتبارات مختلفة ونظرات متفاوتة. وقد قسمه الامام عليه السلام هنا الى اصناف ثلاثة باعتبار ما تقتات به من الطعام المختص بكل صنف وبما يعمله من الاعمال المناسبة له ، لأن الحيوان لا يخلو ، إما ان يقتات باللحوم فقط ، أو بالنباتات فقط ، أو بهما معاً فتكون اضافة على هذا ثلاثة :

(الاول) الانس أي الانسان الذي يعيش عليهما معاً .

(الثاني) آكلة اللحوم وهي السباع والضواري .

(الثالث) آكلات النبات كسائر الحيوانات البائن المجترة منها وغير المجترة. وقد خلق الصانع الحكيم اعضاء كل من هذه الحيوانات المذكورة حسب حاجتها ولما خلقت هي لأجله .

فالانس (الانسان) اسم جنس جمعه اناسي واناس وناس ، وهو مشتق أما من النسيان لوجود هذه الصفة فيه فهو ينسى ويذكر كما اشار الى هذا الشاعر بقوله : وان اول ناس اول الناس ـ يقصد بذلك الناسي الاول ابانا (آدم) عليه السلام واشار الى قوله تعالى : وقد عهدنا الى آدم فنسي ـ او انه مشتق من (الأنس) بضم الهمزة أي الاستيناس الذي هو ضد الوحشة ، فان الانسان مدني بالطبع يأنس بعضه ببعض . او انه مشتق من (النؤوس) أي التحرك عن ارادة وادراك في

وخلقها على ما هي عليه مما فيه صلاح كل واحد منها . فالانس لما قدر ان يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والنجارة والصياغة والخياطة وغير ذلك ، خلقت لهم اكف كبار ذوات اصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض على الاشياء واوكدها هذه الصناعات ، وآكلات اللحم لما قدر ان تكون معايشها من

الأمور العظام وفي معرفة الاحوال المختلفة وانواع المصالح .

وقد عرفوا الانسان بانه الحيوان الناطق أي العاقل ، وهو ارقى انواع الحيوان لمكان عقله ووقوفه على الاشياء عن طريق العلم ووصوله اليها عن تعقل وفطنة وحس .

وهذا الانسان لما قدر ان يكون ذا فطنة وذهن وكلف بالعمل ليعيش ، لزم ان يستعمل اعضاءه لانجاز حاجياته من بناء وصناعة ونجارة وزراعة وخياطة وصياغة وغيرها ، لذلك فقد خلقت اعضاؤه حسبما يحتاج وكما ينبغي ان تكون له ، فكانت اكفه كبار بالنسبة لغيره وفيها اصابع غلاظ متناسقة الطول متدرجة الغلظ من قواعدها الى أناملها منتهية بالاظافر المساعدة له على اللقط والقبض والتفتيش ، كل ذلك ليتمكن ذلك ليستعين بها على اعماله الصناعية وامثالها .

أما آكلات اللحوم : فهي الحيوانات الضارية والسباع المفترسة ، بل تشمل كل حيوان يتغذى باللحوم فقط ، وان معظمها تفترس الحيوانات الحية وتزدرد لحومها ، ومعلوم انها لا تحصل عليها إلا بالصيد ، وهذا الصيد يحتاج الى سلاح والى اعضاء تمكنها من التغلب على فريستها وإلا ماتت جوعاً إذ لا غناء لها سواها ، لذلك فقد خلق الله لها كفاً لطافاً مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لأخذ الصيد ، وحيث انها لم تكن محتاجة الى أي عمل من اعمال الصناعة والزراعة وغيرها لم تخلق على هيئة

الصيد خلقت لهم اكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخاليب تصلح لأخذ الصيد ولا تصلح للصناعات وآكلات النبات لما قدر ان يكونوا لا ذوات صنعة ولا ذوات

من لم يحتج لمثل تلك الامور كالانسان ، بل خلقت اعضاؤها على ما ينبغي لها وما يلزمها لتحصيل قوتها الخاص فقط .

ثم ان آكلة اللحوم هذه صنفان :

(١) برية (٢) مائية . أما البرية فهي الحيوانات ذوات الاقدام المفلوقة أي ذات الاصابع المنفصلة وعلى الأكثر تكون اربعة او خمسة وتنتهي بمخالب قوية ولاطرافها قابلية التحرك الى الجوانب مما يساعدها على الافتراس ، وهي مثل الاسد والنمر والقط البرى وغيرها وكلها تقتات على اللحوم والمنتجات الحيوانية .

أما المائية : فهي التي تعيش في الماء أي في البحار المالحة على الاغلب واحياناً في المياه العذبة وتسمى (الضوارى المائية) مثل حصان البحر ، وهو من الضوارى التي لها أنياب طويلة عليا كقواطع الفيل ، وتمتد الى ما تحت مستوى الفك الاسفل وبهذه الانياب تفترس الاسماك وتنبش التراب وتعيش على الحشرات والانواعم ، كما تستعملها للتسلق على الصخور الجليدية في البحار القطبية .

أما آكلات النبات : وتشمل الثدائن الداجنة التي تعتاش على النباتات وكلها ذات أظلاف او حوافر (والظلف ظفر متقرن كثيراً يغطي السلامية الاخيرة من الاصبع) ولها اسنان قواطع واضراس . وهي تنقسم الى قسمين :

[١] مجترة [٢] غير مجترة . أما غير المجترة فهي مثل فرس البحر والخنازير وامثالها . وأما المجترة فهي كالبقر والغنم والمعز والظبي والزرافه والجمل ، وجميعها تقتات على النبات والحشائش وتسمى (المجترات الحقيقية) عدا الجمل

صيد خلقت لبعضها اظلاف تقيها خشونة الارض اذا حاولت طلب المرعى ولبعضها حوافر مملمة ذوات قعر كاخمص القدم تنطبق على الارض عند تهيئتها للركوب والجولة .

الذي يكون اجتراره ناقصاً ، ومعظمها لا انياب لها في الفك الاعلى ، لكنها تقطع الحشائش والنباتات باستعمال قواطع الفك الاسفل مع اللثة العليا السميكة ، عدا الجمال التي تستعمل قواطع الفكين معاً .

ومعنى الاجترار هو ان تلتهم هذه المجترات طعامها بسرعة في اول الامر من غير ان تمضغه جيداً فاذا ازدردته ينزل الى الكرش حيث يبقى مدة يستطيب فيها فاذا امتلأت كرشه الحيوان انتحى ناحية واخذ يخرج من كرشته قليلا من الطعام تدريجياً ويمضغه فاذا كمل دفعه الى القلنسوة وهذه بدورها تعيده الى الفم بعملية تشبه القيء فيمضغ ايضا ثم يبتلع ليعود الى القلنسوة مرة اخرى راساً وهذه ايضاً تقذفه الى القبة ومنها الى المنفخة حيث يهضم ويوزع على الاعضاء غذاء كاملا .

وهنا لابد ان نعرف ان المجترة معدة معقدة التركيب إذ تتألف من اربعة ردهات :

(١) الكرش وهي ردهة كبيرة جداً تقع على يسار اتصال المعدة بالمرى

(٢) القلنسوة وهي كيس كروى الشكل اصغر من الكرش كثيراً .

(٣ القبة وهي ردهة صغيرة تقع عن يمين القلنسوة من الجهة العليا وتكون مبطنة بطيات جلدية (٤) المنفخة وهي ردهة متوسطة السمة تقع عن يمين القبة ومنها يتم الهضم لطعام الحيوان .

ولما قدر ان لا تكون هذه المختبرات ذوات صناعة او زراعة او ما يماثلها

. . . . . .

من الاعمال ولا صيد كالسباع خلق بعضها اظلاف تقيها خشونة الارض وصلابتها لدى المرعى ، وخلق بعضها حوافر طلفة مجتمعة ذوات قعر كالخص قدم الانسان لتنطبق على الارض وتمكنها من حمل الجسم مستقيما وحمل ما يوضع عليها والركوب على ظهرها ، ولولا هذه الاقدام المخمصة لما امكنها عمل ذلك ابداً .

فانظر وتدبر وتأمل واعتبر كيف اقتضت الحكمة الآلهية في خلق هذه الاصناف الثلاثة من الحيوان ان تكون على ما فيه صلاحها وضرورتها بحيث لو لم تكن هكذا لما استطاعت أداء ما خلقت لاجله ولما حصلت على طعامها وقوتها المقدر لها لذلك فقد كان كما ينبغي على ما ينبغي فسبحانه من حكيم قدير .

آكلات اللحم من الحيوان

قال الامام عليه السلام : تأمل التدبر في خلق آكلات اللحم من الحيوان حين خلقت ذات اسنان حداد وبراثن شداد وأشداق وأفواه واسعة ، فانه لما قدر أن يكون طعمها اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك واعينت بسلاح وأدوات تصلح للصيد ، وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخاليب مهيأة لفعلها ، ولو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد أعطيت مالا

آكلات اللحوم وتسمى الضواري (الضارية) من الحيوان تشمل كثيراً من الحيوانات التي تتغذى باللحوم فقط مثل الاسد والنمر والببر وأشباهها ، وانما سميت ضواري لأن معظمها تفترس الحيوانات الحيه بضراوة تزدرد لحمها . ويكون هـذا الصنف من الحيوان ذا أسنان حادة قوية مدببة حتى القواطع والاضراس منها ، كما تنتهي أطرافها ببراثن [اصابع] ذات مخالب [أظفار] شداد مقوسة حادة ، ولها أشداق [زوايا الفم من باطن الخدين] وأفواه واسعة وذلك لتستطيع بواسطة هذه الاسنان والمخالب أن تمزق فريستها تمزيقاً كاملا يمكنها به ان تزدرد لحومهـا بسهولة ، ويساعد على ذلك تلك الاشداق والافواه الواسعة باستعانة عضلات فكوكها القوية . ولمثل هذه الحيوانات الضارية خاصتان اخريان هما : اتصافها بالذكاء

تحتاج اليه ، لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم ، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج اليه أعني السلاح الذي تصيد به وتتعيش أفلا ترى كيف أعطي كل واحد من الصنفين ما يشا كل صنفه وطبقته بل ما فيه بقاؤه وصلاحه .

والشراسة والشجاعة وقوة الحواس والثانية : ان براثنها التي لا تقل عن الاربعة وقد تكون خمسة تكون مفلوقة أي منفصل بعضها عن بعض وينتهي كل واحد منها بمخلب قوي معكوف ، له قابلية على الحركات الجانبية الى الاطراف لا كالاظلاف التي تنحصر حركتها في الجهة الامامية والخلفية فقط ، وذلك مما يساعدها على الافتراس .

وهذه الحكمة البالغة في خلقة مثل هذه الحيوانات لتحقق لنا انها لما كانت لا تتغذى إلا باللحم وانها لا يمكنها ان تحصل على ذلك الغذاء إلا بافتراس صيدها الذي أعد لطعامها لزم ان يكون لها مثل هذه الاعضاء التي تشا كل وتتناسب مع صيدها ومثل هذا السلاح الذي يصلح للصيد والافتراس معاً .

أما سباع الطير [الطيور الجارحة] كالباشق والعقاب والباز والنسر وأمثالها فانها تكون قوية الاجنحة قصيرة المناقير حادة الاطراف ، ويكون منقارها الاعلى منه اطول من الاسفل ومعكوف عليه ، ولها اقدام قوية ذات مخالب حادة مقوسه وذلك لتستطيع ان تمسك بها فريستها حتى تمزقها بمنقارها الحاد القوى ، ومعلوم ان الحكمة في خلق هذه الاعضاء على هذه الصورة والشكل ما هي إلا لتكون

. . . . . .

مهيأة لفعلها من تحصيل القوت والتمكن من الفريسة التي خلقت لتغذيتها .

فلو كانت هذه السباع من آكلات اللحم ذوات اظلاف ولم تخلق لها تلك البراثن والمخالب والاسنان الحادة المدببة لما أمكنها الحصول على طعامها وغذائها الذي تعتاش به . وكذلك العكس في الوحوش ذات الاظلاف الضرورية لتحصيل اكلها من النبات ولم تخلق لها مخالب وبراثن إذ لا حاجه لها بها ولو اعطيت ذلك لكان لها مالا تحتاج ولم تنتفع به .

فسبحان من أعطى كل واحد من هذين الصنفين ما يشاكل صنفه ويناسب حاجته ويكون به بقاؤه وصلاحه .

ذوات الأربع

قال عليه السلام : انظر الآن الى ذوات الاربع كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها لا تحتاج الى الحمل والتربية كما تحتاج أولاد الانس

إن الله سبحانه لما أنشأ المخلوقات على ظهر هذه البسيطة ، شاء ان يوجدها أجناساً وأنواعاً واصنافاً ، وان يجعل لكل منها أعضاء او اجواناً وظواهر وبواطن واطرافاً ، ثم خص كل عضو فيها بعمل خاص يؤديه ، لاستقامة حياة الفرد والمجتمع والنوع والجنس ، كما أودع فيها قوى تدبرها ورزقها عقولا وفطنا تسير في حياتها على هداها ليبقى الفرد ويدوم النوع بانتظام غير ان الحكمة العامة فى الخلقة اقتضت ان تعطي كل نفس هداها حسب حاجاتها وبمقتضى الحكمة المقصودة ، فلأجل ذلك كان للادراك درجات وللذكاء فيها مراتب ، فترى الحيوان يختلف ذكاء وفطنة ويتفاوت إدراكا وهدى ، كما وقد جعل الله تعالى ذلك الادراك فيها ثابتاً لا يتغير ومحدوداً لا يقل ولا يكثر عدا الانسان الذى تترقى مداركه وملكاته كما صقلتها الايام ويسمو عقله كلما ازداد علماً وتجاربا في هذه الحياة .

والآن تامل الحيوانات ذوات الاربع [وهي كل حيوان يمشي على اربع قوائم يديه ورجليه كالانعام من الابل والبقر والغنم وأمثالها كالسباع والوحوش]. وقال بعضهم : ان ذوات الاربع تشمل حتى الحيوانات ذات الارجل الكثيرة ، ذلك لأن اعتمادها في المشي لا يكون إلا على اربع قوائم منها فقط ، فاذا تأملتها

فمن أجل انه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من الرفق والعلم بالتربية والقوة عليها بالا كف والاصابع المهيـــأة لذلك ، أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها .

وجدت أفراخها لا تحتاج الى ان تحملها أمهاتها او ان تسعى لتربيتها ، بل انها حين خروجها من بطن أمها تتبع الام مستقلة بانفسها دون مساعدة من أمها أينما ذهبت كما انها تلتقم ثدي الام ما دامت في دور الرضاعة فاذا فطمت أي قويت على الا كل مشت وراء أمها تابعة لها فى تحصيل القوت مستقلة مثلها وما ذلك إلا لأن الأم لا تملك من الرفق ومعرفة التربية لافراخها كما تملك أمهات الانسان ، وليس لها اعضاء لتقوم بما تقوم به أعضاء أمهات الانس مثل الاصابع والا كف والاظافر وأمثالها .

ثم تأمل مرة اخرى فى هذه الحيوانات تجدها على اختلاف انواعها وتباين وسائل حياتها وتعدد محاولاتها وميولها وإرادتها لتعيش وتحيي تحت عناية الروح الآلهية التي تمدها بالالهامات الضرورية وباستعانة فطرتها الخلقية فتحفظ ذاتها وتبقى نوعها ولو تركتها تلك الفيوضات الالهامية طرفة عين لهلكت وعدمت من الوجود .

واخيراً فكر وانظر : من أين جاء هـذا الالهام الفطري فى نفوس تلك الحيوانات بدون تعليم وتربية ؟ الهم إلا الهدى الذي افاضه خالقها القدير عليها بلطفه وحكمته لتسير فى حياتها سيراً صحيحاً مناسباً لما خلقت له .

فاذا عرفت هذه المقدمة فاعتبر وانصف . أهل ترى ان كل هذا النظام المتقن وهذا الاتقان البديع يحدث ويوجد بالمصادفة والاهمال !؟ وهل يصدر عن طبيعة

لا عقل لها ولا تدبير ؟ ألا يدل كل هذا على وجود إله منزه عن الجسمية وعن مشابهة مخلوقاته ؟ وانه حي حكيم قادر موجود في كل مكان ، يرى حقيقة الاشياء ولا تراه الابصار بل تدركه البصائر بالتفكير في مخلوقاته جل وعلا وعظم سلطانه .

الطير

قال عليه السلام : وكذلك نرى كثيراً من الطير كمثل الدجاج والدراج والقبج تدرج وتلقط حين تنقاب عن البيضة ، فاما ما كان منها ضعيفاً

الطير هو كل ذى جناح من الحيوان وهو جمع :مفرده طائر وقد يجمع على طيور واطيار ، والطير يكون على الوجه الاغلب بيضوي الشكل او مغزليه ، وذلك لتسهيل حركته فى الهواء ، وله رأس طويل من الجهة الامامية ينتهي بمنقار طويل او قصير مكون من مادة قرنية ، وفي قاعدة هذا المنقار جلد عادي منتفخ والمنقار شقان ماثلان هما المنخران ، كما تقع العينان على جانبي الرأس ، ولكل عين جفنان أعلى وأسفل ، وبالقرب من العينين فتحة خارجية للسمع فى داخلها غشاء طبلي ، وتكون الاقدام على الاكثر مكسوة بحراشف ، والاصابع منتهية بشبه المخالب ، أما العنق فهو جسم طويل ركب من عظام صغار مرنة متصلة بعضها ترتكز على الجذع الذي ينتهي ببروز يحمل ريش الذنب ، وفى طرفي الجذع الاماميين تظهر الجناحان اللذان يمكن طيهما على جانبي الجسم عند السكون ونشرهما للطيران ، وفى اسفله الخلفى من الطرفين تكون القدمان ، أما الجلد فكله مكسو بالريش النابت فى

لا نهوض فيه كمثل فراخ الحمام واليمام والحمر فقد جعل في الامهات فضل عطف عليها فصارت تمج الطعام في أفواهها بعد ما توعيه حواصلها فلا

حليات منتشرة في الأدمة (الجلد) تحت البشرة وتسمى هذه الحليمة (بصلة الريش) وذنبه طويل او قصير .

هذا هو شكل الطير على الوجه الاغلب . ويندرج تحت هذا الاسم مثل الدجاج والدراج والقبج والحمام واليمام والحمر وامثالها من كل حيوان يشترك في هذا التركيب والوصف والشكل .

ولقد اودع الله تعالى في كل صنف من اصناف هذا الطير ذكاء فطرياً حسب حاجته الضرورية لحياته الفردية وبقاء نوعه . فتراها حين تنقاب ببيضها عن الفرخ أي تنفتح البيضة ويخرج الفرخ فانه يدرج على الارض ويلقط الحب دون تعليم الأم او سابق معرفة سوى الغريزة الطبيعية التي اودعها خالقه الحكيم فيه . اللهم إلا بعض أصناف الطيور التي تخرج افراخها ضعيفة الجسم لا نهوض فيها ولا قوة تعينها مثل فراخ الحمام واليمام والحمر فقد جعل البارىء الحكيم في امهاتها بلطفه فضل عطف على تلك الفراخ ، لتجمع بعض ما تلقطه ثم توعيه وتحفظه في حواصلها ريثما يهضم قليلا ويرق قوامه ليلائم معد تلك الفراخ ، ثم تمجه أي تزقه من فمها الى فمه ، وتغذيه مدة من الزمن حتى يقوى ويستقل بنفسه ، يصيح قادراً على لقط الحبوب وهضمها مثل أمه ، وعلى هذا الاساس لم يرزق الحمام فراخاً كثيرة ، وبديهي انه لو لم يكن هذا العطف القليل من الحمام على فراخها الضعاف لماتت جوعاً بخلاف فراخ الدجاج مثلا فانها حين خروجها من البيض تدرج وتلقط الحب دون حاجة الى تعليم امها وتربيتها ما عدا المحافظة عليها من الطوارىء الخارجيـــة لذلك ترى

تزال تنذوها حتى تستقل بأنفسها ، ولذلك لم ترزق الحمام فراخاً كثيرة مثلما ترزق الدجاج لتقوى الأم على تربية فراخها فلا تفسد ولا تموت فكلا أعطى قسط من تدبير الحكيم اللطيف الخبير .

فراخها كثيرة وعلى الاغلب يبقى اكثره حياً حتى يكبر ، فسبحان من خص كلا بقسطه من التدبير في حياته .

وهنا لا بأس بذكر هذه الطيور التي ذكرها الامام كشاهد لقوله :

اما الدجاج : فهو طائر اهلي مشترك الطبيعة في اكله فهو يأكل اللحم والذباب والحشرات وهذا من طباع الجوارح ويأكل الخبز ويلتقط الحب وهو من طباع الطير والبهائم ، والدجاجة تبيض في جميع فصول السنة إلا في شهرين شتويين او قيل اذا هرمت لم يوجد لبيضها مح لذلك لم يحصل فيها فراخ لأن الفرخ يخلق من البياض والصفار غذاؤه ، اما قبل هرمها فقد يوجد في بيضها محان فيخرج منها فرخان ويميز الذكر من الانثى من الفراخ بعد عشرة ايام بان يعلق بمنقاره فان تحرك فهو ذكر وان سكن فانثى .

اما الدراج : فهو طائر كثير الانتاج يبشر بالربيع اسود باطن الجناحين اغبر ظاهرها مثل القطا إلا انه الطف ، ويعد من اقسام الحمام ، لأنه يجمع فراخه تحت جناحيه كالحمام ، ومن خصائصه انه يتنقل ببيضه من مكان الى مكان لكي لا يعرف الحيوان الآخر موضعها فيأكلها . وهو لا يتسافد في البيوت أمام اهل البيت بل في البساتين بعيداً عن الانظار .

والقبج : ويسمى الحجل لدى العامة ، وهو اسم للذكر والانثى ومفرده

. . . . . .

(قبجه) وهذا الطائر يبيض غالباً (١٥) بيضة فقط ، وتخرج فراخه كالفراريج وهو كثير السفاد ، حتى انه اذا غابت انثاه جعلت الذكور يسفد قوتها الضعيف ويقال ان الانثى قد تلقح من رائحة الذكر.

والحمر بضم الحاء المهملة وتشديد الميم المفتوحة مفردها ﴿ حمرة ﴾ طائر احمر اللون يشبه العصفور ويعرف لدى العامة ﴿ ابو الحمير ﴾ سريع الحركة واللفتات ،

اليمام : هو الحمام البرى . وانثاه يمامة .

هذا مختصر مما فصلته كتب الحيوان ومن اراد التفصيل فيراجعها .

قوائم الحيوان

قال عليه السلام : انظر الى قوائم الحيوان تأتي أزواجاً لتتهيأ للمشي ، ولو كانت أفراداً لم تصلح لذلك لأن الماشي ينقل قوائمه يعتمد على بعض ، فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على واحدة ، وذو الاربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف ، لأن ذا الاربع لو كان ينقل

إن لكل حيوان ماش قوائم يقف عليها ويمشي بها ، فمنه ما يمشي على اثنين وهما رجلاه ، ومنه ما يمشي على اربع وهي يداه ورجلاه ، ومنه ما يمشي على اكثر وهو كبعض الحشرات ، واكن هذه القوائم في جميع الحيوانات لا تكون إلا زوجاً لتتهيأ للمشي وتتمكن من السير ، إذ لو كانت أفراداً بمعنى ان تكون واحدة او ثلاثة او خمسة لما صلحت للمشي ، فان الحيوان كما قدمنا اذا أراد المشي لابد وان ينقل قوائمه وهي بالضرورة لا تنقل كلها بل يجب ان تنقل البعض وتعتمد على البعض الآخر ، ثم تعود لتنقل التي اعتمدت عليها وتعتمد على التي نقلتها أولا ، وهكذا يكون المشي . فذو القائمتين اذا أراد المشي نقل واحدة واعتمد على الثانية كالانسان والطيور وأمثالها . وذو الاربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين ، ولكن هذا النقل يكون من خلاف بمعنى انه ينقل اليمنى مثلا من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره ، ثم يرجع فينقل اليسرى من مقاديمه مع اليمنى من مآخيره ، فلو كان ينقل القائمتين من

قائمتين من أحد جانبيه ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الارض كما يثبت السرير وما أشبهه، فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره وينقل الأخريين أيضاً من خلاف فيثبت على الارض ولا يسقط اذا مشى.

جانب واحد ويعتمد على قائمتي الجانب الآخر لسقط ولم يثبت على الأرض، كما ترى في السرير ذي الارجل الأربع فانه لا يستقيم على رجلين اثنين من جانب واحد وهذا هو معنى (من خلاف). وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم عند حكاية قول فرعون للسحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام حيث قال ﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي اليد اليمنى مع الرجل اليسر واليد اليسرى مع الرجل اليمنى.

وفي هذا من الحكمة البالغة والاتقان في الصنع ما يدل بوضوح على قدرة الخالق وعلمه وحكمته. ومن أجل هذا أمر الامام عليه السلام تلميذه المفضل بن عمر ان ينظر ويفكر ويتعقل ليزداد ايماناً ونشاطاً في الاستدلال به وبغيره من الآيات الكثيرة على وحدانية الصانع وتفرده بالخلقة فسبحانه.

حكمة تسخير الإنسان للحيوانات

قال عليه السلام : أما ترى الحمار كيف يذل للطحن والحمولة وهو يرى الفرس مودعاً منعماً ، والبعير لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف كان

لقد أبدع الصانع الحكيم لخلق الانسان وجعله أشرف مخلوقاته ، إذ ميزه بالعقل والنطق وصوره فاحسن صورته إذ جعله منتصباً مستقيما يمشي على اثنين معتدلا متناسب الاعضاء جميل التركيب حسن المنظر وفوق ذلك كرمه وفضله على كثير ممن خلق ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ ثم سخر له سائر المخلوقات لاسعاده وراحته قال تعالى ﴿ وآية لهم انا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ وقال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾ الى غيرها من الآيات الكريمة الكثيرة التي تذكر الانسان بما خلق الله له وما سخره لسير حياته من المخلوقات الطبيعيـــة كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والبحار والجبال والمعادن والحيوانات القوية وحتى المفترسة ، حيث جعلها كلها خاضعة ذليلة منقادة لأمره . ولهذه الغاية أي التسخير لانتفاع البشر خلقت

ينقاد للصبي ، والثور الشديد كيف كان يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ويحرث به ، والفرس الكريم يركب السيوف والاسنة بالمواتاة

الحيوانات عديمة العقل والروية قليلة الأدراك والاحساس ، اللهم إلا ما منحها من الهدى لسير حياتها الحيوانية ودفع الضرر المهاجم أو جلب النفع للضروري لها . فلو كانت تعقل وتتروى فى امورها لكانت جديرة بأن تلتوي وتمتنع على الأنسان فتخالفه فى إرادته فلا تطيعه فيما يريده منها ، ولو كانت كذلك فان الانسان لم يمكنه ان يستفيد منها كما لا يستطيع ان يستخدمها في مآربه وحاجياته وهذا بالطبع خلاف ما أراد الله تعالى منها له .

ولتوضيح ذلك اذكر لك بعض تلك الحيوانات المسخرة التي هي أقوى من الانسان لولا ان الخالق كان قد اخضعها للانسان بحكمة ارادها مثل الحمار والحصان والبعير والغنم وأمثالها .

فالحمار وهو حيوان معروف وديع هادىء من فصيلة الخيل ولكن جسمه اصغر من الفرس واذناه اطول ومعارفه أقصر وذنبه ينتهي بخصلة شعر وحوافره ضيقة ، وهو مسخر للانسان منذ القدم ومعدل عمره من ١٥ — ٣٠ سنة ويندر ان يتجاوزها ، ومدة حمل انثاه (١١) شهراً وعلى الاغلب تلد واحداً فقط . وللحمار انواع او اقسام اشهرها الحمار الاهلي وحمار الوحش ، كما ان الحمار الاهلي قسمان : الاعتيادي الصغير والحمار البغلي الكبير الذي هو دون الفرس قوة إلا انه يتحمل المرض والتأثيرات الجوية اكثر منها ، وهوصبور على الجوع والعطش صالح للركوب والحمل .

أما الحصان فهو حيوان معروف قوي البنية جميل المنظر ، وبقوته تفاس سائر

لفارسه ، والقطيع من الغنم يرعاه واحد ولو تفرقت الغنم فاخذ كل واحد منها فى ناحية لم يلحقها ، وكذلك جميع الاصناف المسخرة للانسان . فبم

القوى الطبيعية حتى قوى المحركات، والمكائن ، وله ضروب واقسام اشهرها الحصان العربي وحصان السباق وفيهما الجمال والرشاقة وسرعة الجري والعربي هذا يمتاز عن غيره بقوة البنية مع صغر حجمه وسرعة سيره وسلاسة حركاته واستواء شكله وانه يقتحم المعارك بالتعليم ويركب السيوف والاسنة بالتمرين مواتياً لفارسه ومحافظاً عليه اذا سقط عن ظهره لا يفارقه في ميدان الحرب بل يحمله احياناً من ثيابه باسنانه ليخرجه عن المعركة وينجو به .

أما الثور : فهو من فصيلة الظلفيات المجترة ، وينقسم الى اقسام باعتبار طول قرونه وقصرها ، ويستخدمه الانسان فى اثارة الارض وحرثها للزرع ولجر الماء من الآبار لسقي المزروعات وذلك لقوته وصلابته وشدته ، وقسم منه يسمن للاكل فقط ، والثور يعد من اشد الحيوانات قوة ويبلغ الغاية من القوة في السنة الثالثة والرابعة من عمره ، كما انه قليل الطاعة للانسان لولا ترويضه وتمرينه وتسخير الله له لقضاء مآرب الانسان اكلا وعملا .

أما البعير : فهو ايضاً حيوان معروف كبير الجثة مهيب الشكل يتحمل الاعمال الشاقة والأحمال الثقيلة كما يقطع المسافات الطويلة في الصحارى والقفار ، وله قوة عجيبة على ان يطوى على الجوع والعطش لمدة ايام ولكنه لا يتحمل البرد مطلقاً . ويوجد منه نوعان (١) ذو السنامين ويعيش فى الجهات الشرقية كايران والافغان وتركستان وآسيا الصغرى ويمتاز بطول الوبر وقوته .

كانت كذلك إلا بانها عدمت العقل والروية ، فانها لو كانت تعقل وتتروى في الامور كانت خليقة أن تلتوى على الانسان فى كثير من مآربه حتى

---

(٢) ذو السنام الواحد ويعيش فى الجزيرة العربية وشمال افريقيا ومصر والهند والحبشة ، ويمتاز بالجسم الخفيف بالنسبة للاول وبقصر وبره ، وهذا ينقسم إلى قسمين :

(١) بعران تحمل الاثقال .

(٢) بعران للركوب وهي المعبر عنها (بالهجين) . والبعير تخصب انثاه أي تحمل عند بلوغها الثلاث سنوات ومدة حملها (١٣) شهراً ، ويعرف عمر البعير بعدد اسنانه .

والآن وبعد ان عرفت قوة هذه الحيوانات بالنسبة للانسان وتأملت في خضوعها له خضوع الذليل الذي لا يقوى على الدفاع عن نفسه تخلوق اضعف منه جسماً وطاقة . لابد وان تدرك جيداً ما أراده الامام عليه السلام حين امر المفضل ان يفكر ويتأمل في هذا التسخير العجيب لطفاً من الله وتفضلا قائلا أما ترى الحمار كيف يذل للطحن والحمولة في حين يرى الفرس التي هي من فصيلته آنفة منعمة وهذا البعير العظيم الجثة والقوة والذي لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف ينقاد الى الصبي انقياد الضعيف ، وهذا الثور الشديد العنود الذي قيل عنه انه قد يهاجم الاسد ويقاوم اكبر الحيوانات المفترسة اذا هاج وغضب ، كيف يذعن لصاحبه الفلاح حتى يضع النير (آلة الحرث) على عنقه ويحرث به الارض ، وكذلك هذا القطيع من الغنم الذي طالما تختلف اتجاهات أفراده فى المرعى وتتباعد عن بعضها حتى لا يمكن

يمتنع الجمل من قائده والثور على صاحبه وتتفرق الغنم على راعيها وأشباه هذا من الامور .

جمعها ، كيف يرعاها الشخص الواحد ويستطيع جمعها بأقل اشارة أو تصويت، وكذلك جميع اصناف الحيوان المسخرة للانسان ، وكل هذا لم يهيأه الله تعالى له إلا ليقضي مآربه وينجز حوائجه .

ثم اكد عليه بالتفكر والتأمل ليتصور ، بم كانت كذلك ؟ ولماذا هـــذا الانصياع والخضوع للانسان ؟ مع قوتها وضعفه واستغنائها عنه وحاجته اليها ، فاذا فكرت في ذلك ادركت ان كل ذلك لم يكن ولم يتيسر له إلا لأنها عدمت العقل والروية ، إذ لو كانت تعقل وتتروى في الامور وكانت تدرك ما يراد بها ومنها ، لكانت خليقة بان تلتوي عليه في كثير من مآربه وان تمتنع عن الطاعة له فلا الجمل ينقاد لقائده ولا الثور يتذلل لصاحبه ولا الغنم تجتمع بأمر راعيها واشباه ذلك من الامور الاخرى الدالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته .

فسبحان من اكرم الانسان بتسخير سواه له وتلك نعم يجب الشكر عليها .

حكمة تسخير السباع

قالَ عليه السلام : وكذلك هذه السباع لو كانت ذات عقل وروية فتوازرت على الناس ، كانت خليقة أن تجتاحهم ، فمن كان يقوم للأســـد

من نعم الباري تعالى على الانسان ان سخر له ما في البر وما في البحر وحتى الطير في جو السماء بل وحتى السباع من الحيوان وهي التي تفترس كل حيوان بما فيه الانسان لقوتها وشراستها ، ولكن الله جعلها بحكمته دون عقل وروية ايضاً اللهم إلا ما منحها من الهدى المحدود إذ لو كانت ذات عقل وفطنة ، والانسان كما لا يخفى من أضعف الحيوانات قوة ومقاومة لا سيما مع السباع ، لتوازرت وتكالبت على الناس حتى تجتاحهم دون ان تستطيع مقاومتها وصدها ، وهي كالاسد والذئب والنمر والدببة مثلا فانها تفترس ما هو أقوى من الانسان ، فكيف بالانسان الضعيف لذلك فان الخالق الحكيم قد شاء ان يسخرها ويخضعها للانسان ، فحجز عليها العقل المميز والروية ومنحها مقدار ما تحتاجه من الفطنة والادراك لسير حياتها الحيوانية فقط ، فاصبحت بدلا من ان يخاف من اقدامها ونكاباتها ويخشى من سطوتها ، هي التي تهاب مساكن الناس وتحجم عنها خوفاً ورعباً ، حتى صارت لا تظهر خارج مكنها ولا تنتشر لطلب قوتها ورزقها إلا بالليل اذا هدأت الناس ونامت العيون وخفي صوت الانسان عنها وهنالك تطمئن على نفسها وتأمن من فتك الانسان بها فهي إذن مع صولتها وقوتها وشراستها كالخائف من الآنس ، بل تبدو كالمفجوعة

والذئاب والنمور والدببة نو تعاونت وتظاهرت على الناس ، أفلا ترى كيف حجر ذلك عليها وصارت مكان ما كان يخاف من أقدامها ونكايتها تهاب

الممنوعة منهم . على انها لو لم تمتنع من طبعها وبارادة الباري تعالى لهذا الخوف فيها ، لساورت الناس في مساكنهم ولضيقت عليهم في مكانهم بل ولم تبق احـــداً إلا وافترسته . ولكن للطف الله بالعباد ، ولفضله على الانسان الذي كرمه وشرفه على سائر مخلوقاته ، شاء ان يظهر عليه نعمه وفضله بهذا التسخير العجيب .

ولزيادة التوضيح لقدرة هذه السباع وقوتها وشدة وطأتها وشراستها وتمكنها من افتراس الانسان وغيره لولا نعمة المنعم المتفضل باخضاعها للانسان ناسب ان نشرح لك مجملامن احوالها ومختصراً من تشريحها لتعرف الفضل والنعمة والحكمة التي خصك الله الكريم بها دون غيرك .

أما الأسد : ويكنى (ابا الحارث وابا شبل) فهو اكبر السباع جسماً وأهولها خلقاً وأقواها صولة وأشدها على الانسان ضراوة ، كبير الرأس مستديره رقيق الخصر ، اهرت الشدقين أي واسعهما واسع المنخرين صغير الاذنين مفتول الذراعين براق العينين واسعهما حاد الانياب ، صلب البراثن جهير الصوت جري القلب هائل المنظر . له في العربيه اكثر من خمسمائة اسم كأسامة وقسورة وحيدره وضرغام وغيرها ، وتسمى انثاه (لبوه) وولده (اشبال) ويدعى (ملك السباع) لما تقدم فيه من الصفات ، وبه يضرب المثل بالشجاعة والهيبة والنجدة ومما يزيده هيبة تكاثف القلبد (شعر العنق) على عنقه ، وليس في السباع ما هو اقوى منه ضربة كف ، فان ضربة واحدة منه تكفي لأن تقضي على فريسته . ويقال ان متوسط علوه عن الارض اربعة اقدام الى اعلا منكبه ، وطوله من ستة اقدام الى سبعة

مسكن الناس وتحجم عنها ، ثم لا تظهر ولا تنتشر لطلب قوتها إلا بالليل

وطول ذنبه ثلاثة اقدام ، وانثاه دونه في كل شيء إلا في شراسة الخلق ، وليس لها لبد ، وهو ينهش اللحم ويمزقه بانيابه المنربة ويبتلعه من دون مضغ ، لذلك كان فكاه لا يتحركان إلا الى أعلى وأسفل . ولونه اصفر أو وردي أو اكلف أو قرنفلي أو اربد رمادي أو اعفر (ابيض الى حمرة وصفرة) ولون لبوته اقتم على الاغلب وهو من فصيلة الهررة لا يختلف عنها إلا في اللبد وعظم الجثة ، وان اظافره على حدتها وعظمها تختفي في مقانب كفه اللينة ، فهو يطأ الارض دون ان يشعر به ، وعيناه تتسع وتضيق تبعاً لكثرة الضوء وقلته ، ولسانه خشن يؤثر في العظام ، ومن عاداته انه لا يفترس الحيوانات الصغار إلا نادراً ويفترس كل حيوان نباتي حتى الفيل والكركدن . ولا يسعى للافتراس الا اذا امضه الجوع اما اذا كان شبعاناً فانه يغضي عن كل حيوان يمر به ، وقلما يخرج لطلب قوته نهاراً بل يظل مختبأ نهاره رابضاً في خيسه ، فاذا جن الليل عس بطلبه ، وسرعان ما تهديه حدة نظره وقوة شامته الى مكان صيده ، فيتجه اليه متسللا برفق حتى اذا صار عنه بضع خطوات ، وثب عليه وثبة سريعة يشفعها زئير هائل ثم لطمة بكفه تدق عنق الفريسة ، ثم ينشب اظفاره وبرائنه بجسمه ثم يلغ دمه ثم ينهش ما يكفيه من لحمه ثم يترك بقية شلوه ويعود الى عرينه ، لذلك تجد كثيراً من الضباع وبنات آوى ترقبه عن كثب حتى اذا فرغ وعاد الى محله انقضت على الفريسة حتى لا تبقى منها اثراً . وهو شديد الخوف من النار ، لكن يتخذ زئيره حيلة لصيده فانه اذا زأر ذعرت الوحوش ونفرت من مكامنها فينقض عليها ويفترسها .

فهي مع صولتها كالخائف من الانس ، بل مقموعة ممنوعة منهم ولو كان ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيقت عليهم .

أما الذئب : فهو حيوان مفترس وحشي من فصيلة الكلاب مخيف الوجه فاذا نظرت اليه رأيته كأنه جائع على الدوام ، يهاجم في طلب فريسته اقوى الحيوانات كالجاموس والحصان البري والثور ، ويأكل كل حيوان يمشي او يزحف من الحشرات بل وحتى الانسان لكن اكثر ما يتعرض للاغنام ، وله حاسة شم قوية بحيث يدرك المشموم من مسافة فرسخ او اكثر وان جوفه الحار يذيب حتى العظم المصمت ، على انه لا يستطيع اذابة نواة التمر . ومن عجيب امره انه اذا نام اغمض احدى عينيه وفتح الاخرى فاذا اكتفت التأمة فتحها واغمض الثانية ، وقد نظم الشاعر هذه الظاهرة العجيبة فيه فقال :

ينام باحدى مقلتيه ويتقي باخرى الاعادي فهو يقظان هاجع

وهو يسفد اثناء مثل الكلب لكنه يخفي نفسه ويفقد عند سفاده كل حركة وكل شراسة حتى ليتمكن الصياد من صيده دون كلفة او خوف في تلك الحال . وله اقسام كثيرة تختلف لوناً وجسماً واعضاء بصورة قليلة . ويقال ان للذئاب ملكا منهم لا يرى الا قليلا لشدة حذره من الانسان ، ويمتاز بطول اقدامه وبشدة دهائه وفسوته بالنسبة لغيره .

أما الدب : فهو ايضاً من الضواري المعروفة كبير الحجم ثقيل الجسم ، يمشي على راحة اقدامه (اخمصها) ويعيش في الاصقاع الباردة واكثره يشتي اي يختفي في الكهوف في فصل الشتاء ولا يتغذى في طول المدة التي ينام فيها شتاء فاذا جاء الربيع خرج ضعيفاً هزيلا قد اثر فيه صيامه عن الاكل كما ان انثى الدبة تلد

صغارها وترضعها داخل الكهف دون ان تأكل شيئاً ، وهي تعتني بنظافة فراخها بغسلها بالماء ولا سيما عيونها وآذانها .

والدب حيوان شرس يأكل اللحم والنبات ويفترس الحيوان ويتسلق الاشجار لأكل الثمار ، وهو يعمر الى عشرين سنة او اكثر اذا صار تحت سيطرة الانسان وتربيته .

وله اقسام كثيرة ، كالدب الابيض والاسود الامريكي والكسلان والعركي والاشمط والاقمع ودب تبت وغيرها .

اما النمر : فهو حيوان مفترس من فصيلة السنانير ، اصغر من الاسد ولكنه اشرس منه ، منقط الجلد بنقاط سود وبيض ، وجمعه انمار .

هذا ما لزم بيانه مجملاً ومن اراد التفصيل فليراجع كتب الحيوان المفصلة .

الكلب

قال عليه السلام : ثم جعل في الكلب من بين هذه السباع عطف على مالكه وحماماة عنه ، ومحافظة له يتنقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الذمار عنه ويبلغ من محبته لصاحبه أن

الكلب حيوان ألوف شديد الرياضة وتحمل الشدائد كثير الوفاء لأهله ، وهو لا سبع ولا بهيمة لأنه لو تم له طبع السباع لما ألف الناس ، ولو تمت له طباع البهيمة لما اكل اللحم والعظام ، وهو نوعان أهلي وسلوقي ، والسلوقي نسبة الى مدينة باليمن تسمى (سلوق) . وكلا النوعين سواء بالطبع وانتقاء الاثر وشم الرائحة من بعيد ، وفي ان الجيف أحب اليه من اللحم الغريض ، وقد يأكل العذرة ، وفي ان بينه وبين الهرة عداوة شديدة ، ومن طبع الكلب حراسة صاحبه وحماية حريمه حاضراً وغائباً وذاكراً وغافلا ونائماً ويقظا ولا يقصر عن ذلك وان جفوه اهله ولا يخذل صاحبه وأن خذله فتراه يتنقل على الجدران والسطوح في ظلمة الليل البهيم وعند اشتداد الارياح العاصفة والرعد والمطر وفي كل وقت يخاف فيه على أهله يحرس منزل صاحبه ويذب عنه .

وهو أيقظ الحيوانات عيناً في وقت الحاجة الى النوم ، وانما يكون نومه غالباً في النهار عند الاستغناء عن حراسته ، ثم لا ينام إلا غراراً وإلا غثاثاً (قليلا)

يبذل نفسه للموت دونه ودون ماشيته وماله ويألفه غاية الألف حتى يصبر معه على الجوع والجفوة ، فلم طبع الكلب على هذه الألفة والمحبة إلا

على انه اسمع من فرس واحذر من عقعق مع بعد صوته . ويقال ان سبب قلة نومه ، ان دماغه بارد بالنسبة الى سائر أدمغة الحيوانات أمثاله .

ومن جملة طباعه انه يحب صاحبه حباً كثيراً يجعله يبذل نفسه للموت دونه ودون مايتعلق به من مال وماشية وأهل وأطفال ، ويألفه غاية الألفة حتى انه يصبر معه على الجوع والجفوة وهو يعرف وجه صاحبه ويميزه عن وجه الزائر والغريب ، وربما غاب عنه صاحبه حولا أو اكثر ، فاذا بصر به قادماً بعد هذه المدة الطويلة عرفه ، واعتراه من الفرح والبصبصة والالتواء مما يدل على سروره وشدة الحنين اليه بحيث لا يخفى على كل من يراه وينظر اليه .

وهو كذلك صبور على احتمال كل شدة حتى الجراحات المنهكة في بدنه ، فاذا ما أصيب بذلك عالجه بريقه لعساً وتنظيفاً ، لمعرفته الالهامية الفطرية بان ريقه هو دواؤه وهكذا يعمل حتى يبرأ . ومن طبعه انه لا ينبح الضيف ولا الوجهاء من الناس ، ولا من يعرف صلته بصاحبه ومحبته له ، بل ينبح السود من الناس والفقراء ومن يراه دنس الثياب وهو ذكي يقبل التعليم والتلقين ، ومن حالاته التودد والترضي والبصبصة والتآلف خصوصاً مع صاحبه . أما وفاؤه فحدث عنه ولا حرج وقد ضرب المثل بوفائه فقيل (اوفى من الكلب) وان له من الحكايات والمشاهدات العجيبة في الوفاء مالا مجال لذكرها هنا، كما فصلتها الكتب الباحثة عن الوفاء في الانسان والحيوان .

ليكون حارساً للانسان وله عين بانياب ومخاليب ونباح هائل ليذعر منه السارق ويتجنب المواضع التي يحميها ويخفرها .

لذلك فقد أمر الامام عليه السلام بالتفكر والعبرة في خلقة هذا الحيوان السبعي الخلقة الألوف الوفي الطبع على ان السباع من طبعها الافتراس والنفور من الناس كيف جعل الله تعالى في طبعه العطف والوفاء والالفة والحرص على خدمة أهله وحراستهم ، أليس ذلك لحكمة خالقه الحكيم حين أراد الاستفادة بحراسته للانسان والانتفاع بسمعيته في الحماية عن السباع والسراق ، ليأمن صاحبه بواسطته من شرور غيره وينام هادئاً مستريحاً ، فهو عين له ساهرة لتنام عينه ، وسلاح قوي يحمي ماله وحريمه وماشيته من كل سارق ومفترس ، فسبحان من سخر لنا هذا بلطفه وكرمه .

وهنا لا بأس بذكر بعض حالاته الخلقية فان الذكر منه يعرف ببوغه بان يرفع رجليه للبول ، واذا تمت له ستة اشهر او ثمانية ينزو الانثى ، والانثى تصلح ان ينزى عليها اذا بلغت الستة اشهر ، ويكون حملها (٦١) يوماً ولا تضع قبل اكمال (٦٠) يوماً واذا وضعت قبل هذه المدة فان جروها لا يبقى غالباً ، والجرو يولد اعمى لمدة (١٢) يوماً ثم يبصر ويظهر لبن الأنثى في اطبائها (أي اثدائها) الثمانية قبل ان تضع بخمسة ايام ،واكثر ما تضع الكلبة من الجراء اثنى عشر جروا ، وقد تلد اقل من ذلك .

والكلاب تعيش غالباً الى اربعة عشر سنة ، وقد يبقى بعضها الى عشرين سنة هذا ما أردنا بيانه والله اعلم .

وجه الدابة

قال عليه السلام : يا مفضل تأمل وجه الدابة كيف هو ؟ فانك ترى العينين شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها لئلا تصدم حائطاً أو تتردى في حفرة ، وترى الفم مشقوقاً شقاً في أسفل الخطم ، ولو شق كمكان الفم

الدابة كل ما دب على الارض من الحيوان ، وقد أخرج بعضهم الطير من الدواب مستدلا بقوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ ورد عليه بان الطير قد يدب على الارض برجليه اذا نزل اليها وبهذا تجمع كلمة (الدابة) كل حيوان ، ولكن قد تغلب هذا الاسم على ما ركب وحمل عليه الاثقال من الدواب ذوات الاربع كالخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم وساير المجترات تقريباً .

وإن جميع هذه الدواب لها خطم مستطيل في الجملة في أسفل الفم والانف وهو وجه الدابة المذكور وقد جعل الله عينيها في أعلاه شاخصتين الى الامام لتبصر بهما ما بين يديها حتى تمشي مستقيمة دون أن تصدم حائطاً أو حاجزاً ، أو ان تتردى في حفرة لا تراها ، فلو كانتا في غير هذا الموضع من الوجه كما هو في كثير من الحيوانات الأخرى لما استطاعت أن تسير مستقيمة معتدلة الى الامام ، ثم جعل لها الفم مشقوقاً في أسفل الخطم مما يلي الارض ، لتتمكن من أن تلتقم به علفها

من الانسان في مقدم الذقن لما استطاع ان يتناول به شيئاً من الأرض ، ألا ترى الانسان لا يتناول الطعام بفيه ولكن بيده ، تكرمة له على سائر الآكلات ، فلما لم تكن للدابة يد تتناول العلف جعل خرطومها مشقوقاً

من الارض وتشرب الماء بسهولة ، ولو لم يكن الفم في هذا المكان من الخطم وكان كفم الانسان مشقوقاً في مقدم الذقن الى الامام لا الى الاسفل ، لما استطاعت ان تتناول به شيئاً في حين ان الدابة ليس لها يد ترفع بها العلف والماء الى فمها اذا كان في مقدم الخطم فلذلك اقتضت الحكمة ان يكون خطماً وان يكون مستطيلا في الجملة وان يشق الفم في اسفله .

ومع ذلك فقد اعينت الدابة ايضاً بالحجفلة وهي الشفة التدلية قليلا ليسهل عليها تناول القريب والبعيد من غذائها دون كلفة ومشقة واعياء لأن الحجفلة هي التي تجلب العلف من بعيد وتقذفه في الفم .

أما الانسان فانما جعل فمه من الامام من حيث ان له يداً يتناول بها غذاءه ويرفعه الى فمه دون ان يخضع رأسه الى الأرض كالدابة ويأخذ منها غذاءه بفمه ، وهذه الميزة في الانسان هي من جملة ما كرمه الله تعالى بها وشرفه على باقي الحيوانات كما ميزه بعقله وإدراكه بل وحتى في تركيب اعضائه تفضلا منه ولطفاً به .

ولأجل الانتباه الى مثل هذه الحكمة البالغة والابداع في الخلقة في وجه الدابة ،

قال الامام عليه السلام : تأمل وجه الدابة ، أي انظر الى ما خلق الله سبحانه البدع الحكيم من محكم صنعه واتقان مصنوعه ، لتعرف مستدلاً على ان الصادفة

من أسفله لتقبض على العلف ثم تقضمه ، واعينت بالحجفلة لتتناول بها ما قرب وما بعد .

والاهمال لا يعقل ان يخلقا مثل ذلك النظام والابداع والحكمة والاتقان دون ان يختلف في كل فرد عن الآخر من هذا الجنس . إذن فما بال الملحدين والجاحدين قد عموا وصموا حتى انكروا الصانع عناداً وجحدوه جهلا دون أي إدراك او تعقل ، ولو انصفوا بعد ان عقلوا اعلموا ما هم فيه من الجهل والغرور ولأدركوا انهم فى وادى الضلالة تائهون فتعساً لهم وَسحقاً .

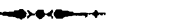

ذنب الدابة وشعره

قال عليه السلام : اعتبر بذنبها والمنفعة لها فيه ، فانه بمنزلة الطبق على الدبر والحياء جميعاً يواريهما ويسترهما، ومن منافعها فيه ان ما بين الدبر ومراقي البطن منها وضر يجتمع عليه الذباب والبعوض ، فجعل لها الذنب كالمذبة

الذنب في الحيوان هو ما استطال من السلسلة الفقرية الى اسفل بارزاً الى الوراء وتكون فقراته صغيرة لينة لدنه ، وقد امتدت معها اعصاب كثيرة من اعصاب الحركة ليكون سهل الالتواء والحركة الى الاطراف . وهذا الذنب قد يكون عضلياً متيناً وقصيراً في البعض كذنب الأرنب ، وطويلا في البعض الآخر كذنب الاسد والكلب ، وتراه أحياناً أجرد ليس عليه شعر ، وقد يكون طويلا وعليه شعر كثير كاذناب الخيل ، وقد يخلق حرشفياً كذنب كلب الماء او مؤلفاً من الريش مثل ذنب الطيور أو من اغشية شعاعية كذنب السمك الى غير ذلك من الانواع التي لا يحصيها مخلوق .

وقد خلق الذنب للحيوان لحكمة مقصودة ومنافع كثيرة للحيوان نفسه وللناس ، منها ما ذكرها الامام عليه السلام للفضل بقوله : انه بمنزلة الطبق على الدبر في الذكور وعلى الحياء في الاناث وذلك ليواريهما ويسترهما عن الانظار . ومنها ان ما بين الدبر ومراقي البطن يجتمع في الغالب وضر واوساخ وفضلات من افرازاتهما مما يستلزم ان يجتمع عليها الذباب والبعوض فيؤذيها ولم تتمكن من طردها لولا هذا

تذب بها عن تلك المواضع ، ومنها ان الدابة تستريح الى تحريكه وتصريفه بمنة ويسرة فانه لما كان قيامها على الاربع بأسرها وشغلت المقدمتان بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة ، وفيه منافع

الذنب الذي يكون لها كالمذبة تذب الحيوانات بها عن تلك المواضع ما يؤذيها من الحيوانات الصغار كالدود والذباب والبعوض . ومنها ان الدابة تستريح الى تحريكه وتصريفه بمنة ويسرة ، وذلك لأنها لما كان قيامها دائماً على قوائمها الاربع باسرها ، وقد شغلت المقدمتان بحمل البدن عن التقلب والتصرف كان لها في تحريك الذنب راحة ، فانك وان كنت ترى ان الدابة واقفة على قوائمها الاربع جميعها ولكن يجب ان تعلم ان كل اعتمادها في الوقوف على المقدمتين فقط . ألا ترى الحمار مثلا اذا اراد دفع عدوه او مؤذ آخر رفع رجليه المؤخرتين ورفسه بهما في حين انه لا يستطيع رفع المقدمتين المعتمد عليهما في وقوفه وحمل بدنه ، وعلى هذا يكون القسم المؤخر من بدن الدابة غير مستريح تماماً في حركته وتقلبه ، فاقتضت الحكمة ان يعان بعضو آخر يستعين به على حركاته من ورائه ، فجعل له الذنب الممتد من الفقرات الظهرية التي هي قوام استقامة الظهر وقوته وانبساطه ، فاصبح هذا الذنب كرجل خامسة تساعد القائمتين المؤخرتين على حركاتهما ، كما يريح نفس الظهر وفقراته التي تتحرك بتحريكه ، فلا تقف او تتصلب بكثرة وقوف الحيوان وسكونها وقوفه .

ثم قال الامام ﷺ : وفيه منافع يقصر عنه الوهم فيعرف موقعها في وقت الحاجة اليه ، ثم ذكر واحدة منها وهي ان الدابة قد ترتطم وتقع في الوحل أحياناً فلا يكون شيء اعون على انهاضها من الأخذ بذنبها .

أقول : وقد ذكر علماء وظائف الاعضاء من منافعه ايضاً ما نذكر لك

أخرى يقصر عنها الوهم فيعرف موقعها وقت الحاجة اليها فمن ذلك ان الدابة تزتطم في الوحل ولا يكون شيء أعون على نهوضها من الأخذ بذنبها ، وفي شعر الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها فى مآربهم .

بعضها . فمنها ان القردة مثلا قد تتعلق بذنبها فى اغصان الاشجار ، ومنها انه يكون للطيور كالسكان في طيرانها والسباحة فى الهواء ، ومنها ان كلب الماء يستخدمه للسباحة في الماء ويستعمله لتسوية الطين الذي يعمل منه وجاره ، ومنها ان اليربوع مع القنفذ يعتضدان به مع أرجلهما للجلوس على شكل مثلث منتصبين ، ومنها ان الخيل وامثالها من ذوات الاربع تطرد به الذباب وغيره عن جسدها لأنه طويل ويصل الى جميع البدن الى غير ذلك من الفوائد والمآرب التي قال عنها الامام عليه السلام انها يقصر عنها الوهم .

ثم قال عليه السلام : وفي شعر الذنب منافع للناس يستعملونها لمآربهم . أقول : وهذه المآرب التي يستعمل الناس فيها الشعر كثيرة ، واحسبها لا تخفى على أحد لو تأمل قليلا . فهي تستعمل للمناخل قديماً قبل استعمال تور الحديد لنخل الطحين واشباهه ، كما يعمل منها الاشراك القوية لصيد الطيور وذلك بحياكته عيوناً وزرداً مدورة يلقون بها على الارض وينثرون فيها الحب لتطوق الطير اذا توسطها ليلقط الحب وهو لا يدرى ، ومنها انه يعمل منه الفرش لغسل الاواني قديماً ، ومنها انه يستعمل لاوتار بعض آلات العزف كالعود والربابة لدى الاعراب وغيرهم ، الى امثال ذلك من المآرب التي يعرفها اهلها ومن احتاجوا للشعر فى مآربهم وحاجياتهم . وهذا القليل من المنافع ذكرناه كشاهد لما قاله الامام عليه السلام : يستعملونها في مآربهم والله اعلم .

ظهر الدابة وحياها

قال عليه السلام :ثم جعل ظهرها مسطحاً مبطوحاً على قوائم أربع ليتمكن من ركوبها ، وجعل حياها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من

إن من جملة المنافع والمآرب التي من أجلها سخر الله ذوات الاربع للانسان هي ركوبها وحملها لاثقاله من محل الى محل كما جعلها زينة قال تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ ولأجل ذلك فقدجعل الصانع تعالى ظهرها للركوب والحمل مسطحاً مستوياً مبطوحاً على قوائم اربع كالكرسي أو المنضدة التي وقفت واستقام سطحها على اربعة ارجل ، ولو كان مائلا أو مسنماً ، او كان غير مسطح مستو لما امكن ركوبها ، لكنه جعل كالتخت المستوي المبسوط السطح لاستراحة الراكب في جلوسه على ظهرها .

ثم انه لما كانت الدابة في جميع أحوالها من وقوف أو حركة أو سير أو نوم أو غير ذلك مستقيمة الظهر على قوائمها الاربع بحيث لا تستطيع الانبطاح على ظهرها ولا على جوانبها ، وعلى فرض استطاعتها على ذلك فانها لا تتمكن من فتح رجليها كالانثى من الانسان ، تعذر على فحلها وطؤها وضربها كفاحاً أي مقابلة من الامام وكان من الضروري اذا اراد وطأها ان يطأها وهي واقفة ، ومن أجل هذا

ضربها ، ولو كان أسفل البطن ، كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها ألا ترى انه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل المرأة .

فقد اقتضت حكمة الصانع الحكيم ان يخلق حياها بارزاً من ورائها ، ولولا ذلك لامتنع الولوغ واذا امتنع الولوغ لم يحصل التناسل واذا لم يحصل التناسل انعدم النوع وهـــذا مالا تقصده الحكمة في الخلقة على ان النسل اذا انقطع من مثل هذه الحيوانات تعطلت اكثر حاجات البشر ومآرب الانسان التي تقضي بواسطتها فسبحان اللطيف الخبير .

مشفر الفيل

قال عليه السلام : تأمل مشفر الفيل وما فيه من لطيف التدبير ، فانه يقوم مقام اليد في تناول العلف والماء وازدرادهما الى جوفه ، ولولا ذلك لما

الفيل حيوان عظيم الخلقة من أضخم الحيوانات جسماً واكثرها أكلا واطولها عمراً يعيش من (١٠٠) الى (١٥٠) سنة ، ويبلغ ارتفاعه من (٨) الى (١٠) أقدام وطوله (٢٦) قدماً أما وزنه فقد يبلغ سبعة اطنان ، له قوة جسمية هائلة وقدرة على السير لمسافات طويلة ومن عادة الفيلة ان تسير قطعاناً مجتمعة لا على الانفراد ، وان تختار الطريق الصالح لمرورها وهي في صف واحد لا يسمع لوقع اقدامها صوت ولا ثقل ، ذلك لأن باطن اقدامها مستو يشبه الوسائد المصنوعة من المطاط ، والفيل قوي السامعة ولكنه ضئيل الابصار وأقوى حاسة فيه هي حاسة الشم إذ انه يستطيع ان يميز وجود الآدميين على مسافة ميل تقريباً أما رقبته فقصيرة غليظة وملتصقة ببدنه فكأنه لا عنق له ، ولذلك فانه لا يتمكن من ايصال رأسه الى الأرض لالتقاط علفه او شرب مائه ، ولأجله فقد خلق الله له مشفراً (خرطوماً) طويلا ليقوم مقام أنفه ويده التي يوصل بها غذاءه وماءه الى فمه ، مضافاً الى انه سلاحه الذي يبطش به والعضو الذي يعيش بواسطته ، ولكنه من مقاتله الذي اذا اصيب به قتل ومات ، ويوجد في مشفره هذا خرق لا ينفذ الى الداخل هو كالوعاء الذي يملأه من الطعام او الشراب ثم يولجه في فيه بكل سرعة وسهولة ويزدرده ،

استطاع أن يتناول شيئاً من الارض لأنه ليست له رقبـــة بعدها كسائر الانعام ، فلما عدم العنق اعين مكان ذلك بالخرطوم الطويل ، ليســـد له

وهذه هي طريقة اكله وشربه .

والخرطوم عضو عضلي مجوف مركب من لحم وعصب وغضروف ، مستدق الطرف الاسفل وقد انقسم بواسطة حاجز شاقولي الى انبوبين يقابلان المنخرين وهو مزود بعضلات كثيرة دقيقة تجعله قابلا للالتواء نحو جميع الجهات كيفما اراد وفيه إحساس قوي جداً لا سيما في نهايته حيث يوجد نتوآن صغيران متحركان هما كالاصابع في الوظيفة إذ بهما يستطيع الفيل التقاط الاشياء الدقيقة ، وبتذوقهما يتعرف على اشياء كثيرة .

أما صوته فيحصل من هذا المنفر ايضا ولكنه ضئيل جداً بالنسبة الى عظم بدنه وكبر حجمه .

أما قوائمه الاربع فطويلة ومستقيمة وخاصة العضد والفخذ ، أما ركبتاه ومرفقاه فقريبان من الارض ، لذلك لا يمكنه ان يثنيهما ويجلس على الارض كغيره من ذوات الاربع وكل قدم من اقدامه ينتهي بخمسة اصابع كلها مخفية لا يظهر منها إلا الاظافر .

والفيل قاطعان طويلان جداً لا سيما في الذكور منها خارجان من الفك الاعلى الى الخارج يسميان (نابي الفيل) او (العاج) وكل منهما اســـطواني الوضع مقوس مدبب يتركب من مادة العاج ذات القيمة التجارية العظيمة ولا توجد له انياب غيرها ، والفيل من اذكى اللبائن لكبر دماغه بالنسبة اليها ، وهو يتعلم

فيتناول به حاجته ، فمن ذا الذي عوضه مكان العضو الذي عدم ما يقوم مقامه إلا الرؤف بخلقه . وكيف يكون هذا بالاهمال كما قالت الظلمة .

بسهولة ، ويكون بالتدجين خادماً امينياً يساعد صاحبه بما يتعلم وهو على ضخامتـــه املح الحيوانات واظرفها واحكى منها ، ويحمل من الاطنان الثقيلة مالا يحمل غيره إلا انه لا يستطيع النهوض به اذا كان باركا كالجمل . ومن طبعه انه حقود كالجمل اذا ما اوذي وربما قتل صاحبه اذا غضب وهاج حقداً عليه .

والفيل صنفان : ـ آسيائي ـ افريقي ـ . أما الآسيائي فله جبهة منخفضة واذنان صغيرتان وتاج اسنانه (قواطعه) بيضوي الوضع وهو قابل للتعليم ، ويكون مسكنه الهند والصين اما الافريقي فله جبهة ضيقة ورأس مسطح واذنان كبيرتان متدليتان على كتفه يعيش في الآجام ولا يألف الانسان ولا يتعلم .

هذا هو الفيل وهذا مختصر شرح تركيبه خلقة وطباعاً . فاذا تأملت اعضاءه على عظمها لم تجد اعظم من مشفره ابداعاً واتقاناً ، فان هذا العضو العجيب على انفراده قد قام مقام الانف واليد للشم والالتقاط وهو الوعاء لرفع الماء ، وهو السلاح للدفاع والهجوم ، وهو محل الاحساس العام وهو مقتل من مقاتله .

ولهذه الأمور وغيرها امر الامام ﷺ تلميذه المفضل بالتفكر والتأمل فيه ، وانت اذا عرفت ما ذكرناه لك من المنافع فيه وتعقلتها ، ايقنت جازماً ان مثل هذا الاتقان في الصنع والحكمة في الخلقة والنظام في ذلك كله لم يكن بحصل بالمصادفة ولا بالاهمال ولم يخلق دون قصد وإرادة من خالقه كما زعم الملحدون الجهلة الذين ظلموا انفسهم بهذا العناد والهذيان تعالى الله عما يزعمون علواً كبيرا .

عنق الفيل

قال عليه السلام : فان قال قائل فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الانعام ؟

لقد قصد الامام عليه السلام بالقائل هنا الملحد الذي أنكر الصانع وارجع الخلقة الى المصادفة والاهمال او الطبيعة العمياء الصماء البكماء ، فقال قوله السخيفة وزعم هذا الزعم الفاسد والنقد الواهي ، فان هذا واضرابه قد ضل الصراط المستقيم وتاه في ظلمات الغي والضلال ،والملحدون كما تقدم في الجزء الاول من هذا الشرح صنفان صنف حرم نعمة العقل وهبة الادراك ولم يؤت نصيبه من الفهم فهذا جاهل يعد من السوائم إذ لا شعور له ليدرك جمال هذا الكون ولا حس لديه ليوقظ مشاعره اشراق الشمس المضيئة او افول القمر المنير او أي تغيير في هذا العالم المليء بالعبر والمنبهات و ﴿ اولئك كالانعام بل هم أضل سبيلا ﴾ وصنف رزق الذكاء وأوتي العلم ولكن خدعه ذكاؤه وغره علمه فخيل اليه انه ممن وصل الى الحقائق بعلمه وادركها بفهمه ، فمد ببصره الى أفق ابعد من حدود عقله ، وارتقى الى ارفع من مستوى علمه حتى تاه في بيداء الضلال ، وسار فيها بقدم جريئة دون روية أو تفكر ، وهذا الصنف ايضاً لا يبعد كثيراً عن أخيه الجاهل ، لأنه عشق النور فاحترق بالنار .

وهؤلاء بكلا صنفيهم قد جهلوا الاسباب والحكم في الخلقة ولم يدركوا عللها ولا عرفوا السر من ايجادها ، فقصرت افهامهم عن إدراك الصواب ، وتقهقرت مداركهم عن الوصول الى الحقيقة ،حتى خرج قسم منهم لقصر حلومهم الى الجحود .

قيل له : ان رأس الفيل وأذنيه أمر عظيم وثقل ثقيل ، فلو كان ذلك على عنق عظيم لهدها وأوهنها ، فجعل رأسه ملتصقاً بجسمه لكيلا يناله منه

ومرق الآخر لضعف بصائرهم الى العناد والتكذيب ، فانكروا خلق الاشياء عن صانع حكيم وخالق مبدع . زاعمين ان هذا العالم بما فيه من نظام وتدبير وما حوى من عجائب وغرائب لم يتكون إلا بالمصادفة ، إذن فلا صنعة في تكوينه ولا تقدير في نظامه ولا حكمة في تدبيره .

وبديهي ان امثال هؤلاء المنكرين للخالق والخلقة والتائهين في بيداء الغفلة لابد وان يعترضوا على كل من آمن وأقر بالخالق وان ينتقدوا كل ما يدعيه هذا المؤمن من الحكمة في الخلقة جهلا وغروراً . لذلك قال الامام عليه السلام : فان قال قائل أي من هؤلاء المنكرين كما هو ديدنهم : بأن الفيل لماذا لم يخلق له عنق كسائر الانعام (والانعام هي الحيوانات اللبائن من ذوات الاربع كالأبل والبقر والاغنام وامثالها) (والفيل منها) لكي لا يحتاج الى خرطوم بهذا الطول وهذه العظمة ؟ فلو كان له عنق كان اولى واحكم . وهذا بالطبع إنكار منهم لحكمة الخالق في خلقه فأجاب الامام عليه السلام : بأن الخالق الحكيم قد شاءت حكمته واقتضى علمه أن يكون رأس الفيل واذناه عظيمين ثقيلين للمناسبة مع جثته وعظم بدنه ، وبديهي ان مثل هذا الرأس الكبير الثقيل لا يستطيع أي عنق ان يحمله مهما غلظ وعظم ، ولو كان لهده واوهنه ، ولهذا الغرض خلق الرأس ملتصقاً بجسمه قائماً على كتفيه القويين لكيلا يناله ما وصفناه من عظم الرأس والاذنين وثقلهما .

ثم لما كان العنق بهذه الصورة صار الفيل غير قادر على تنزيل رأسه الى الأرض لتناول علفه وماءه ولا على تحريكه الى الاطراف لآربه الاخرى ، فخلق له

ما وصفناه ، وخلق له مكان العنق هذا المشفر ليتناول به غذاءه فصار مع عدم العنق مستوفياً مافيه بلوغ حاجته .

هذا المشفر العجيب الذي اصبح بمنزلة اليد والأنف وآلة الشم والاحساس بل اصبح كما تقدم سلاحه الذي يهاجم و به يدافع والذي جعل الله تعالى فيه من القوة مايقلع به الشجرة القوية العالية من اصولها دون أي جهد او اهتمام لها . وبذلك استوفى كما يحتاجه لقضاء حاجياته الضرورية وانجاز مآربه الحياتية .

فهل في هذا الاتقان والابداع ما يبقى شكاً او اعتراضاً لشاك او معترض لاسيما اذا انصف نفسه وعرف الحقيقة اللهم تعاليت عما يقولون وخسر هنالك المبطلون .

حياء أنثى الفيل

قال الامام عليه السلام : انظر الآن كيف جعل حياء الانثى من الفيلة في أسفل بطنها فاذا هاجت للضراب ارتفع وبرز حتى يتمكن الفحل من ضربها ، فاعتبر كيف جعل حياء الانثى من الفيلة على خلاف ما عليه فى

ان خرمول الفيل صغير بالنسبة الى عظم جثته وكبر بدنه ولكن صاحب كتاب الباه يزعم ان اعظم الايور اير الفيل واصغرها اير الظبي ، وان خصيتيه ملصقتان بكليته بحيث لا تريان ، ولذلك يكون كثير السفاد ، كما ان فرج الانثى من الفيلة في اسفل بطنها ، ومعروف ان الفيل لا ينزو انثاه إلا اذا بلغ من العمر خمس سنين ، ويكون نزوه في الربيع ، ومن عجيب امره انه لا ينزو إلا على فيلة واحدة لا غير ، وله عليها غيرة شديدة لا يرضى غيره من الذكور ان ينزو عليها . واذا اغتلم هاج ، فلا يمكن لأحد آنذاك ان يقرب منه فانه قد يقتل غيره من الفيلة اذا دنا منه أو من انثاه حتى ولو كان صاحبه او سائسه وعندما يهيج للضراب ويدنو من فيلته يرتفع فرجها ويبرز الى الخارج ليتمكن الفحل من وطئها وضربها ، فاذا حملت فان الذكر لا يقرب منها ولا يمسها ولا ينزو عليها مدة الحمل وهي سنتان كما انه لا يضربها ايضاً بعد الوضع لمدة اخرى ، فاذا تم حملها وأرادت الوضع دخلت النهر لتضع حملها فى الماء ، لأنها لا يمكنها ان تلد إلا وهي واقفة قائمة لعدم وجود

غيرها من الانعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للامر الذي فيه قوام النسل ودوامه .

فواصل لقوائمها ، فاذا وضعته كان مستوى الاسنان لطول محكته فى بطنها ، ثم هي لا تلد إلا ولداً واحداً أعني لا تلد توأماً ابداً . وعند ذلك يكون الذكر حارساً لها ولولدها من الحيات المائية والبرية من ان تلذعها او ان تؤذيهما .

فتأمل أوليس كل ذلك من العجب في ابداع الخلقة التي قصد الحكيم بها دوام النسل وقوام النوع ، فسبحان المبدع ما أعظمه .

الزرافة

قال عليه السلام : فكر في خلق الزرافة واختلاف أعضائها وشبهها باعضاء أصناف من الحيوان ، فرأسها رأس الفرس وعنقها عنق الجمل وأظلافها أظلاف البقرة وجلدها جلد النمر ، وزعم ناس من الجهال بالله عز وجل ، ان نتاجها من فحول شتى ، قالوا سبب ذلك ان أصنافا من حيوانات البر إذا أرادت الماء تنزو على بعض السائمة وينتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط .

من أصناف شتى ، وهذا جهل من قائله وقلة معرفة بالباري جل قدسه ،

الزرافة وتكنى ﴿ أم عيسى ﴾ دابة من ذوات الاربع جميلة المنظر عجيبة الخلقة جمعت في خلقتها اشياء جلة من الحيوانات ، فهي برأسها وعنقها تشبه البعير إلا ان عنقها الذى لا يتجاوز السبع فقرات يعظم مما يلي الصدر ويدق مما يلي الرأس ، وهو لا ينحني ولا ينبسط بل يظل منتصباً على الدوام ، ورأسها اصغر قليلا وادق خطماً من رأس البعير وخطمه ، وتشبه البقر والوعل باظلافها وارجلها المنشقة وبقرنيها الصغيرين ، إلا ان اظلافها ليس لهازمعتان ﴿ والزمعة هنة نابتة فوق الاظلاف ﴾ وقرناها مستديران قصيران مكسوان بجلد شعرى ينتهي بحلقة من الشعر الكثيف وتشبه النمور والفهود بكون جلدها ارقط ، اما ارتفاع كاهلها الكثير عن

وليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف ، فلا الفرس يلقح الجمل ولا الجمل يلقح البقر ، وانما يكون التلقيح من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمار فيخرج بينهما البغل ، ويلقح الذئب الضبع فيخرج من بينهما السبع ، على انه ليس في الذى يخرج من بينهما عضو واحد منهما كما في الزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل وأظلاف من البقرة بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كالذى تراه في البغل

مؤخر كفلها وانحدار متنها فتشبه فيه الضبع ولذلك كان اسمها عند الفرس مركبا وهو (اشتر كاو يلنك) فمعنى اشتر الجمل ومعنى كاو البقر ومعنى يلنك النمر . كما انها تشبه الحيوانات المجترة فى تركيب كروشها وامعائها . ثم ان لمنخرى الزرافة جهاز عضلي صغير تستطيع بواسطته فتحهما واغماضهما لأجل التنفس . اما عيناها فكبيرتان سوداوان جميلتا الشكل براقتان ، تتمكن من النظر بهما الى الاعلى والى الوراء في وقت واحد مما يجعل الدنو منها صعباً ، فاذا قاربها العدو او الصياد وكانت لم تتمكن من الفرار بادرته بالرفس ودفعته عن نفسها بشدة وعنف ، وبهذا السلاح أي الرفس قد تدرأ الاسد الضعيف ، ولكنها مع ذلك من طبعها الهدوء والسكون فلا تؤذي احداً ولم تتعد على حيوان مهما كان ضعيفاً او قوياً مالم يتعد عليها .

أما عنقها فانه لما كان اكثر رعيها من اوراق الاشجار العالية كالسنط وهو شجر عال معروف في مصر وغيرها فقد خلق طويلا مركباً على كاهل مرتفع على صدر مستطيل عالي ، فهي تتناول الاشجار العالية فى الغياظل (الاجم

فانك ترى رأسه وأذنيه وكفله وذنبه وحوافره وسطاً بين هذه الاعضاء من الفرس والحمار ، وشعيحه كالممتزج بين صهيل الخيل ونهيق الحمار ، فهذا دليل على انه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتى من الحيوان كما زعم الجاهلون ، بل هي خلق عجيب من خلق الله للدلالة على قدرته التي لا يعجزها شيء . وليعلم انه خالق أصناف الحيوان كلها يجمع بين

التي التفت وكثرت اشجارها الشاهقة) بلسانها الطويل الرفيع الذي يمكنه ان يلتوي ويدق حتى للستطيع ان تدخله في حلقة لا يزيد قطرها على نصف قيراط ، وذلك ليسهل عليها طي تلك الاوراق وحزمها وقد يعينها على ذلك كثرة مافيه من الحلمات الخشنة . ثم لما كانت لا تستطيع ان تحني عنقها لرعي شيء من العشب في الارض فانها تفشج وتفرج بين يديها فيدنو صدرها من الارض ويصل خطمها الى العشب .

ومن خواصها انها سريعة السير جداً بحيث تسبق جياد الخيل ، كما انها اصبر على بعد الشقة منها .

اما لونها فانه يختلف ايضاً كاختلاف اعضائها ، فالرأس اشقر الى حمرة ، وعلى العنق والظهر والجانبين رقط مربعة مكثه يفصل بعضها عن بعض يخطوط بيض الى صفرة ، ولون البطن وجانبي الفخذين الأنسيين ضارب الى البياض . ومن طباعها انها لا ترعى إلا اسراباً ، وانها حيوان هلوع نفور ، وإلا اذا حجر عليه في حظيرة صار وديعاً ، ولكنه لا ينسى طبيعة النفار وهي خلافاً لجميع ذوات الاربع تقدم الرجل اليسرى واليد اليسرى معاً اذ مشت على ان ذوات الاربع كلها تمشي

ما يشاء من أعضاء في أيها شاء ، ويفرق ما شاء منها في أيها شاء ويزيد في الخلقة ما شاء وينقص منها ما شاء ، دلالة على قدرته على الأشياء وانه لا يعجزه شيء اراده جل وتعالى . اما طول عنقها والمنفعة لها في ذلك فان منشأها ومرعاها في غياطل ذات أشجار شاهقة ذاهبة طولا في الهواء فهي تحتاج إلى طول عنق تتناول بفمها أطراف تلك الاشجار فتقوت من ثمارها

من خلاف . وهنا لما بين الامام عليه السلام شكل الزرافة واختلاف اعضائها اراد ان يفند زعم الجهال بخلقة الصانع فقال عليه السلام : وزعم ناس الخ . وبيان ذلك انه قد ثبت علمياً وقرر علماء الحيوان الذين استقروا الحيوان وتتبعوا حياته وحالاته وعاداته وطباعه وعيشه وتناسله . ان الالقاح والتناسل لا يحصل في الحيوان بين صنفين مختلفين اختلافاً كثيراً كاختلاف الجمل والنمر او البقر والضبع او الفرس والفهد وامثالها ، اللهم الا ان يكون الفرق قليلا والصنفان متقاربين في الاعضاء والحياة بل وحتى القطر والمناخ كالحمار والفرس الناتج منهما البغل ، وكما ان النتاج الحاصل بين الجنسين المتقاربين ايضا لم يكن لترى فيه عضواً واحداً يشابه مثله من اعضاء أبيه او امه تماما بل تكون اعضاؤه ممتزجة منهما وسطاً في الشبه ، فرأس البغل واذناه وكفله وحوافره مثلا وسط بين اعضاء الفرس والحمار ، كما ان شحيجه اى صوته كالممتزج من الصهيل والنهيق وهذا هو عين ما قاله عليه السلام رداً على من قال بان الزرافة من لقاح اصناف شتى من الحيوانات البرية التي ترد الماء وتغزو على بعض السوائم فينتج مثل هذا الحيوان الذي تراه كالملتقط من جملة حيوانات ، وهذا دون شك جهل منهم باسرار الخلقة وعدم معرفة لقدرة

الخالق وعلمه وحكمته .

ولو تأمل العاقل المنصف وتدبر بفكره السليم في هذا الخلق العجيب لاعتقد وايقن حساً ووجدانا ان خالق هذه الاصناف من الحيوان وصانعها على اختلاف اجناسها وانواعها واصنافها لم يكن إلا الذى اراد فخلق وشاء فصنع وعلم فانشأ فهو الحكيم القادر الذى يجمع بين ما يشاء من الاعضاء فيما يشاء وفي أيها شاء ويزيد وينقص فى الخلقة ما شاء ويفرق مايشاء منها في أيهاشاء وشاءت حكمته وعلمه دلالة على وحدانيته وبرهاناً على قدرته في تكوين الاشياء وأنه لا يعجزه شيء اراده ولا يريد إلا ما فيه صلاح مخلوقه وانتظام حياته واستقامة سيره فى هذه الحياة فسبحانه سبحانه.

القـــرد

قال عليه الـسلام : تأمل فى خلقة القرد وشبهه بالانسان في كثير من أعضائه اعني الرأس والوجه والمنكبين والصـــدر وكذلك احشاؤه شبيهة ايضا باحشاء الانسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يومي اليه . ويحكي كثيراً مما يرى الانسان بعقله ، حتى انه يقرب من خلق الانسان وشمائله بالتدبير في خلقته على ماهي عليه ان يكون عبرة للانسان في نفسه فيعلم انه من طينة البهائم

القرد ويكنى (ابا خالد) حيوان قبيح مليح ذكي محاكي قابل للتأديب وهو اشبه ما يكون بالانسان في أحواله واعضائه من ساير الحيوانات ، فهو يضحك ويطرب ويقبل التعليم والتلقين ويأنس بالناس ويغرق فى الماء كالآدمي الذي لم يحسن السباحـة ، وله نظام خاص فى المعيشة ، يخضع ضعيفه لقويه ، ويسود الجميع أشدها قوة واوثقها خلقاً واحدها ظفراً ونابا ، وهذا القوى انما يسودها بالدفاع عنها واستماتته في منع حماها وحسن قيادته لها . لذلك تخضع لامره الذكران وتخدمه الاناث بتفلية شعره وحك ظهره ، هذه حالاته التي يشبه بها الانسان . اما الشبه في اعضائه فهي اولا ان سعة فحفة رأسه تبلغ نصف حجم

وسنجد اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب وانه لولا فضيلة فضله بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم ، على ان في جسم القرد فضولا اخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله ، وهذا لم يكن ماناً للقرد ان يلحق الانسان لو اعطى

جمجمته، في حين ان الانسان تبلغ ثلثي الجمجمة او ثلاثة ارباعها: ثم ان هذه الجمجمة التي ترتكز على العمود الفقري تكون في جميع الحيوانات قريبة من الجهة الظهرية مما يجعلها لا تتمكن من رفع رأسها الى الاعلى ولكن في القرد تكون مائلة الى الجهة الامامية من الرأس كالانسان غير انها في الانسان اقرب الى منتصف الرأس ثانياً : التشابه بالوجه غير ان نسبة الوجه الى القحف في الانسان اكثر نسبته الى القرود ، ثالثاً : في الانف ولكنه في الانسان ابرز وادق وفي القرد افطس غير بارز رابعاً : في المنكوك فان المنكبين متشابهان الا انهما في القرود اقوى واكثر نتوء مما هما في الانسان خامساً : الحاجبان والجبهة لكن الحاجبين في القرود ناتئان حتى لتراهما كالحلقة حول العين والجبهة منخفضة وفي الانسان ترتفع الجبهة لان مخه الكثير التلافيف يكون في القسم الامامي من الدماغ وهو مركز النطق والتفكير سادساً : الاسنان فانها في القرود (٣٢) كالانسان سابعاً : يتجه المنخران في القرود الى الاسفل ويفصل بينهما حاجز رقيق كالانسان ثامناً يمشي معظم القرود على راحة الاقدام مثل الانسان تاسعاً تحاول القرود الانتصاب عند ما تقف على الارض وقد تقف مثل البشر عاشراً : لا ذنب للقرود العليا كالانسان الحادي عشر : تتشابه القرود مع الانسان في الصدر والمنكبين غير انهما في القرد اضيق كما هو ظاهر للعيون . هذه هي وجوه

الشبه بينهما فى الاعضاء، اما التشابه بالاحشاء فذلك انهما يتشابهان بالدم فقد فحص العلماء قطرتي دم منها للتمييز بين دم الانسان ودم القرود وكان من دم القرود العليا فتعذر عليهم التمييز فى حين أنه يسهل لديهم التمييز بين دم الانسان ودم اي حيوان لبون غيره . هـــذا وان تمييز المراكز العصبية الفعالة فى الدماغ البشرى كثيرا ما كان الاطباء تجربها على القرود وتكون بالاخير هذه الاستنتاجات فيها وتطبيقها على الانسان صحيحة الى حد كبير . ثم انا نرى ان القرود تصاب بنفس الامراض المعدية التى يصاب بها الانسان مثل السفليس والتيفوئيد والتيفوس فى حـين ان سائر الحيوانات غير القرود تكون ذات مناعة طبيعية ضد مثل هذه الاسقام السارية ، ويقال ان القرد الشمبانزى الذي هو اقرب من باقي اقسام القرود الى الانسان مولع بالمشروبات الروحية الكحولية وقد يرى منه ميلا الى الزنى حين يرى النساء .

والقرود تسكن المناطق الحارة على الاكثر وتقتات على انواع الثمار والاوراق والحبوب وعلى الطيور والحشرات .

وهي من الحيوانات الولود و يكون حمل انثاها من سبعة الى تسعة اشهر ، وتلد على الاكثر ولداً واحداً فى الوضع الواحد ، وقليلا ما تلد اثنين ويسمى ولدهـــا (قبشة) وهي تحرص عليه حرص الامهات من الانسان . فترعاه اذا لعب وتسهر عليه ليلا اذا نام واذا مات تقوم بجانب جثته نائحة وتقطع الطعام والشراب مدة حزناً عليه وربما ماتت من جزعها .

وللقرود طوائف كثيرة ولكن علماء الحيوان حصروها فى صنفين (الاول) قرود العالم القديم وهي قرود آسيا واوربا وافريقيا (الثاني) قرود العالم الجـديد وهي قرود امريكا الشمالية والجنوبية وهـذا الامريكي ينقسم الى قسمين (١) القرود اشباه

مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه ، والفصل الفاصل بينه وبين الانسان بالحقيقة هو النقص في العقل والذهن والنطق

الثعاليب والسناجيب (٢) القرود المتعاوية ذات الأذناب الطويلة القوية التي تلتوي لتتعلق بها على الاشجار والتي تعتمد عليها اكثر من اعتمادها على يديها . اما الفديمة فهي ايضا طائفتان الاولى اشباه الكلاب في طول خطمها واذنابها الشبيهة باذناب الكلاب بل اطول ، ولكن يديها تماثلان يدى الانسان ، لذلك فانها تستطيع ان تاكل بالسكين والشوكة ، وان تصب الماء في الكوب وتشربه ، وان تلبس الثياب وتركب الخيل وان تتعلم الحركات العسكرية وان تحترم اسيادها . كل ذلك بالتعليم في استخدامها في غايات كثيرة الثانية اشباه الانسان في عظم الجسم ومواضع نبات الشعر وجملة الأعضاء اعنى الرأس والصدر والمنكبين والوجه وهي اقسام (١) الشامبانزى (٢) اورانغ اوتان (٣) الغوريلا والشامبانزى اصوات متقطعة يستدل بها عن بعض اغراضه ، حتى ان الاولاد الذين يتربون معها يستطيعون ان يفهموا مرادها . ومن فطنته أنه يشعر برقى الانسان عليه فيخضع له كما يرى نفسه ارقى من سواه من الحيوان .

ولهذه الفطنة التي يفهم بها التعليم والتلقين ، ولهذا التشابه في الاعضاء والأحشاء مع الانسان فقد اشتبه بعض فلاسفة الغرب كداروين واضرابه فقالوا : ان اصل الانسان منحدر من القرد حتى انهم قرروا قانون (النشوء والارتقاء وبقاء الاصلح) ولكنهم جهلوا او انهم عقلوا ولكن لم ينصفوا عقولهم ولم يطلبو الحقيقة فتاهوا في غرورهم العلمى وحسبوا انهم يحسنون صنعا ولو رجعوا الى العقل السليم

لعرفوا ان الصانع الحكيم لما علم ان الانسان اذا ترك وشأنه بطر وطغى! واذا لم ينبه غفل واستعلى ، جعل له في دنياه عبراً ودلائل توقظه عند الغفلة وتهديه اذا زل وضل ومن تلك العبر التفكر والتأمل فى القرد وهو الحيوان المشابه له في كثير من الاعضاء والحالات والفطنة والذكاء ، ليدرك فلا يطغى ويتنبه فلا يغفل ، وليعلم انه مهما بلغ من الرقى والحضارة وما اوجد من مخترعات وعجائب فهو لم يزل من سنخ البهائم ومن طينتها ، ولا يختلف عنها بسوى العقل والنطق ، ولو لا فضل الله تعالى عليه حينما كرمه وفضله على سائر خلقه بهما لكان كبعض البهائم دون فرق سوى الشكل والهندام وسوى الانتصاب والاعتدال فسبحان المنعم المتفضل الذى لا تحصى نعمه .

كسوة أجسام البهائم

قال عليه السلام : انظر يا مفضل إلى لطف الله جل إسمه بالبهائم كيف كسيت اجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف لتقيها من البرد وكثرة الافات والبست الاظلاف والحوافر والاخفاف لتقيها من الحفا إذ كانت لا أيدى لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للغزل والنسيج ، فكفوا بأن جعل كسوتهم فى خلقهم باقية عليهم مابقوا لا يحتاجون الى تجديدها

البهيمة كما تقدم كل حيوان ذى قوائم اربع يمشى عليها من دواب البحر والبر عدا السباع وجمعها بهائم وقيل هي كلما لا نطق له وفى صوته ابهام ، وقيل هي كلما قل ادراكه او عدم من الحيوان وعلى هذا المعني قد يشبه الجاهل البليد بالبهيمة لقلة ادراكه . ولكن الانسان وهو نوع من انواع جنس الحيوان يمتاز عن سائر انواعه بامور اختص بها مما جعله اشرفها والمسيطر عليها والمسخر لها وتلك الامور هي (١) انتصاب قامته فانه الحيوان الوحيد الذى يستطيع الوقوف منتصباً والمشي والركض والقفز على قدميه بخفة ورشاقة وبدون مساعدة يديه وذلك لان انتصاب قامته اوجب اتساع مجال نظره واطلاق يديه وتحريرهما فى الاستعمال والعمل (٢) دقة حاسة اللمس عنده مع تحرير يديه وشدة احساسها لاسيما الانامل منها مما ادى الى قدرته على صنع الآلات والادوات لمختلف حاجياته ، كما امكنه ان يستخدمها للغزل والنسج وساير الصناعات ، وللدفاع عن النفس او الهجوم على غيره لدى الحاجة

الى الهجوم . هذا ولو لاحظنا هذا الاحساس والادراك لوجدناه من اقوى العوامل التي تساعده على الابتداع والاختراع والارتقاء من حيث الذكاء والعقلية ، كما انها تمهد له سبل التفوق والاستعلاء على سائر الاحياء في الحياة طبقاً لما جبل عليه من حب الغلبة والتعالي على سواه (٣) تكلمه ونطقه بواسطة المقاطع في اسنانه وفمه ليعبر بذلك عن أفكاره وعواطفه وميوله بالالفاظ المتولدة من اختلاف تلك المقاطع فيخرجها كلمات ذات معانٍ مقصودة معينه في ذهنه فتكون مستخدمة له في التفاهم مع ابناء نوعه وفي تبادل المقاصد والآراء والمآرب (٤) المحاكة العقلية التي تبرز فيه بسبب اللغة والنطق مما تصل به الى الشعور بالذات والحس الادبي والاخلاقي والشعور بالواجب نحو نفسه او غيره والى التمييز بين الصالح والطالح ، والى التفنن في اتخاذ طرق الراحة له بالاعمال الفكرية والصناعية .

وبديهي ان الحيوان عدا الانسان لا يمكن ان تكون في دماغه افكار عامة او تصرفات متنوعة تشعر بعقلية وذكاء عام . اللهم الا بعض الحيوانات الراقية كالقرود وبعض الببائن والطيور ، فان بعض تصرفاتها توحي الينا بان لها شيء من الفكر عن بعض اشياء محسوسة فالكلب مثلا يتصور العظم والعصا ويعرف صاحبه فيعبس له ويدرك بان له وظيفة الحراسة وحماية منزل اهله والوفاء له . والقطة تتصور الفأر ولذة اكله . والطير يعرف فرخه ويحنو عليه لتربيته ويدافع عنه عدوه . والثعلب يتصور الدجاج وطيب لحمه الى غيرها من الادراكات الخاصة المحدودة وبهذه المميزات والخصائص وغيرها في الانسان اصبح ذا حيلة وتدبير في قضاء لوازمه الضرورية وحاجاته الحيوية بنفسه وبفكره وعقله لاسيما وقد منحه صانعه الحكيم كفاً مهيأة للعمل واصابع تعينه على الغزل والنسيج ، فهو يتخذ لنفسه كسوة يستر بها

. . . . . .

جسمه بعد ان ولد عريانا لا ريش عليه ولا صوف ولا شعر ولا وبر ، فهو مضطر بحكم الحاجة للغزل والنسيج مضافاً الى تعلقه ومعرفته لحاجته فيما يعمله لسدها ، ثم قد يتفنن في تغييرها واستبدالها حالا بعد حال حسب مستلزماته الوقتية وضرورته الزمنية . اما الحكمة في خلقه عرياناً محتاجاً للكسوة فهي امور فيها صلاحه واصلاحه وسعادته منها ان هذه الحاجة لابد وان تستلزم بالضرورة ان يعمل لها وان يقضي زمانا يلهو بها عن العبث والفساد والافساد مما تخرجه اليها الكفاية والاستغناء اذ لو كان مكتفيا كالحيوان عن الغزل والنسيج لاوجب ذلك فراغه للعبث لانه يفكر وهذا ما لا يصلحه ومنها ان لباسه وكسوته لما كانت خارجة من بدنه واقعه عليه كان من المستطاع له اذا ثقلت عليه ان يخلعها فيستريح بنزعها مدة اذا شاء ثم يعيد لبسها متى شاء وهذا ايضا من اسباب راحته ومنها ان الكسوة لما كانت مصنوعة له من غزله ونسجة كان من استطاعته ان يحدث فيها ضروباً من الجمال وروعة الصنعة حسب رغبته وميله فيتلذذ بلبسها وتغييرها . كما انه يستطيع أيضا بما منح من ذكاء وكف ويد واصابع اذ يتخذ لوقاية قدميه العاريتين ضروبا من الخفاف والنعال يصنعها من جلود او ليف او ما يشابهها حسب ما يريد . وهناك منافع ومصالح اخرى للذين يصنعونها او يعملون الالبسة من الناس حيث ان في عملهم وصناعتهم هذه مكسب للعامل والصانع يكون به معاشهم وقوتهم وقوت عيالهم بل وقضاء اكثر امورهم الواجبة والمستحبة الى غير ذلك مما لا حصر لها من الحكم والمصالح .

اما البهائم فانها لما لم تحصل على تلك المميزات التي اختص بها الانسان دونها وجب يقتضي الحكمة ان تكون كسوتها مخلوقة لها منها ومعها دون حاجة الى اعمال فكر او اتخاذ تدبير ، فخلق الصوف للشاة والشعر للمعز والوبر للابل ليقوم

الى تجديدها والاستبدال بها . أما الانسان فانه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهو ينسج وينزل ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال وله فى ذلك صلاح من جهات ، من ذلك انه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث ما تخرجه اليه الكفاية ، ومنها انه يستريح إلى خلع كسوته إذا شاء ولبسها إذا شاء

كل منها مقام الكسوة واللباس لها ، كما خلق لوقاية قوائمها الظلف للشاة والبقر والظبي والجاموس وامثالها والحافر للفرس والخف للبعير لتقوم مقام الحذاء للانسان وحيث انها لم تحتج الى عملها لم تخلق لها ايضا ايد عاملة ولا اكف ولا اصابع .

ولهذه الحكمة البالغة أراد الامام عليه السلام لفت نظر المفكرين فى خلق الله وعظيم قدرته ليعتبر المعتبرون وينتبه الغافلون فأمر المفضل ان يتأمل فيما انعم الله على هذا الحيوان الاعجم والبهيمة التي لاتفهم بهذه الكسوة والاظلاف لوقاية الجسم والقوائم من البرد والحر والطواريء والجفا . وهنا نذكر لك مجملا من تركيب كسوة هذه البهائم اتماماً للفائدة . فالصوف يتكون من مادة تسمى (ابيثيليوم) ومن غدد خال من المادة النخاعية و هذا الابيثليوم يتالف من صفائح رقيقة صغيرة جداً تتراكب بعضها على بعض ومنظرها خرشني ولها ميازيب وهذه الميازيب الخرشفية فيه هي التي تكسب الصوف ملمساً خاصاً به يتميز عن الشعر ، ويختلف الصوف حسب نوع الغنم والتربة والمكان والطعام والظل والاقليم ، كما يختلف قطر اليافه ولمسه رقة وخشونة ، فما كان على الكتفين والظهر ارق من غيره وبعده ما كان على الرقبة واسفل الكتفين وعلى طول الاضلاع . ويصحب نمو الصوف مفرز دهني يسمي

ومنها انه يتخذ لنفسه من الكسوة ضروبا لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها، وكذلك يتخذ له بالرفق من الصنعة ضروبا من الخفاف والنعال يقي بهـــا قدميه، وفي ذلك معايش لمن يعمله من الناس ومكاسب يكون فيها معايشهم وفيها أقواتهم وأقوات عيالهم، فصار الشعر والوبر والصوف يقوم للبهائم مقام الكسوة، والاظلاف والحوافر والاخفاف مقام الحذاء.

(الح) وهذا الح مؤلف من مادة صابونية متحدة مع البوتاس وكمية قليلة من كربونات البوتاس ومقدار من الكلس وزيت حيواني يكسبه الرائحة الخاصة واللبونة هذا هو الصوف.

اما الشعر فهو عبارة عن انابيب دقيقة تنبت من بصيلات صغار منتشرة تحت الجلد، وفيها المادة المنمية والمادة الملونة وتالله زيتية مليئة.

اما الوبر فهو كالصوف الا ان مادته اقوى وأرق من المادة الصوفية.

اما الظلف والحافر والخف فكلها اجسام قرنية لدنه تتولد من ما تفرزه حلمات الجذور التي تحت الجلد وفيها تلك المادة الزيتية المنمية كالتي تنمي الظفر في الانسان فسبحان الصانع المبدع.

***

البهائم يوارون أنفسهم إذا أحسوا بالموت

قال عليه السلام : فكر يا مفضل في خلقه عجيبة جعلت في البهائم فانهم يوارون أنفسهم إذا ماتوا كما يواري الناس موتاهم ، والا فان جيف هـذه الوحوش والسباع وغيرها لا يرى منها شيء وليست قليلة فتخفى لقلتها ، بل لو قال قائل انها أكثر من الناس لصدق فاعتبر ذلك بما تراه

ان من درس حياة الحيوان وخبر أوضاعها وعرف ادراكها للذى تحتاجه في حياتها واهتدائها لما يلزمها من شؤن وتدبير لدهش مما يشاهده في أكثرها من عجيب الخلقة وغريب الطباع وما يلاحظه في أعمالها وأفعالها من المهارة الفائقة والاحكام والنظام والاتقان ، ولتحقق ان خالقها قد وهب لها ادراكا واعطاها هدى على قدر ما تحتاج في تمشية حياتها الحيوانية ، كما خصها بكلما يلزمها من الاعضاء والسلاح للدفاع عن نفسها والسعي وراء أسباب معيشتها وتدبير شؤنهـا فكأنها لا تفترق عن الانسان إلا في النطق والكلام الذي امتاز به هذا النوع من المخلوق عن سواه من انواع الحيوان ، على ان لكل نوع من أنواع الحيوان احتراسا وروغانا من الباغي عليه واحتيالا لما يريد صيده مما هو دونه وامتناعا مما هو فوقه ، كما ان لكل نوع فيها منطقا خاصا به لا سيما النمل والطير ، فقد نطق

في الصحاري والجبال من أسراب الظباء والمها وحمير الوحش والوعول والايائل وغير ذلـــك من الوحوش وأصناف السباع من الاسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها وضروب الهوام والحشرات ودواب الارض وكذلك أسراب الطير من الغراب والقطا والأوز والكركي والحمام وسباع

القرآن الكريم في بيان منطقهما الخاص الذي يتفاهمان به اذ يقول : (وعلمناه منطق الطير) ويقول : (وقالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) ، هـذا ولا برهان لمنكر وجود منطق للحيوان بحجة انه لا يفهمه ، فانه لا يفهم لغة كثير من الناس مثل كلام الصينيين واليابان وأكثر اهل الغرب فاذا كنت تسمي لسانهم رطانة ، فانهم هم ايضا يرون نطقك رطانة من حيث انهم لا يفهمونه ايضاً .

نعم لما كانت حاجيات الحيوان محدودة لاكحاجيات الانسان ، كانت مقاصده ومعانيه ايضاً قليلة ومحدودة فهي تتفاهم مع بعضها على قدر مطالبها ومعانيها على انك قد تعلم بعض الطير الكلام فيتعلم ويتكلم مثل الببغاء ومثله الصبي من الانسان فانه ليس له منطق اولا ولكنه يتعلم ويتكلم .

اذن فادراك الحيوان وهداه فطري غريزي لا يتغير ولا يتبدل بل يسير عليه حسب لوازمه وحاجاته الحيوانية دون قصد وتأمل حتى في تحيله للصيد او دفاعه عن عدوه .

اما في الانسان فهو كسبي يزداد ويصقل بكثير التجارب وتنوع المطالب والمقاصد واللوازم . من اجل ذلك اراد الامام عليه السلام ان ينبه الغافلين ويوقظ النائمين

الطير جميعاً وكلها لا يرى منها إذا مائت إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع فاذا أحسوا بالموت كمنوا في أماكن خفية فيموتون بها، ولولا ذلك لامتلأت الصحارى منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الامراض والوباء فانظر الى هذا الذي يخلص اليه الناس وعملوه بالتمثيل الاول الذي مثل لهم كيف جعل طبعاً وأدكاراً في البهائم وغيرها ليسلم الناس من معرة ما يحدث عليهم من الامراض والفساد .

للتفكير في هذه الخلقة الدالة على توحيد الخالق فقال للمفضل :فكر يا مفضل في خلقه عجيبة جعلت في البهائم ، وهي خلقة واحدة من عجائب الخلقة الآلهيه واحدى الغرائز الكثيرة المدهشة المودعة في الحيوان لتعتبر انت ومن وفق للاعتبار بهذا النظام المتقن وبهذا الابداع الذي لا يمكن ان يأتي عن الاهمال وعدم القصد وبدون غرض حكيم وهي ان البهائم كما لا يخفى كثيرة وكثيرة جداً بحيث لو قال قائل انها اكثر من نوع الانسان لكان صادقا في مقاله وقد ورد في القرآن الكريم : (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم) هذا عدا ما في البحار مما يفوق على ما في الارض والفضاء كثرة ، وعدا ما لم نره بالعين المجردة ، فانظر و فكر واعتبر على الاقل بما تراه في الصحارى والجبال من اسراب الظباء والماوحر الوحش والوعول والاباييل والدبيه والنمور وساير السباع وامثالها الى كثرة البهائم الى جانب اصناف الوحش وضروب الهوام والحشرات واكثر منها اسراب الطيور باتواعها من غربان وقطاو اوزو كركي وحمام وسباع الطير الى كثير غيرها مما لا تحصى فان هذه كلها اذا ماتت (وكثيراً ما تموت لقصر اعمارها) لا يرى لفظائسها اثر ولا

عين ، بل لا يرى من احيائها الا الواحد بعد الواحد، يصيده قانص صياد او يفترسه مفترس من السباع ، فما هو السر في ذلك ؟ ومهما كان السر فهو عجيب مدهش يحتاج الى تأمل واعتبار .

وهنا كان جواب الامام عليه السلام عن هذا السر العجيب قوله : فانهم يوارون انفسهم اذا ماتوا كما يوارى الناس موتاهم. وكيفية ذلك انهم اذا احسوا بنزول الموت اي ادركوا تغييراً في بدنهم الهموا بان يكمنوا انفسهم في مواضع خفية وان يواروا ابدانهم في كهوف او شقوق او غارات في الجبال والصحاري البعيدة عن الناس ليموتوا هناك فتكون لهم كالقبور فلا تظهر جيف فطائسهم فاما ان تجف او ان تأكلها سائر الحشرات او الحيوانات الاخرى ولولا ذلك لامتلأت الصحاري وسائر بقاع الارض بفطائسها التي لابد وان تفسد وتعفن وبذلك تفسد وتعفن رائحة الهواء فيحدث من جراء ذلك بعض الامراض السارية الخبيثة مثل الوباء والملاريا والتيفوئيد واضرابها . ثم قال الامام عليه السلام : فانظر الى هذا الذي يخلص اليه الناس وعملوه بالتمثيل الاول الذي مثل لهم . اقول : الظاهر انه يشير بذلك الى ان مواراة الناس لموتاهم كانت بالتعليم والتمثيل لا بالغريزة والفطرة . وذلك انه مثل الغراب لابن آدم الذي قتل اخاه كيف يواري سوأة اخيه . فكان هذا هو التمثيل الاول اذ لم يكن يعرفه ابن آدم من ذي قبل ثم عمل به وواري اخاه ، وهكذا عمل الناس مثل ذلك من بعده فواروا موتاهم في التراب وقد ذكر القرآن ذلك، بقوله ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً - الى قوله - فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين فبعث الله غراباً يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوأة اخيه . قال يا ويلتى اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فاواري سوأة

اخي فاصبح من النادمين) .

فكان هذا العمل وهو مواراة الموتى هو العمل الكسبي الاول الذي اكتسبه الانسان بالتعليم من غيره اي من الغراب الذي هو اول من مثله له وعلمه اياه ولم يكن بالفطرة والغريزة كموارات الحيوانات لانفسهم فقد جعلت فيهم هذه الخلة طبعاً وادكاراً .

واخيراً اليس هذا التعليم والتمثيل للانسان في مواراة موتاه لطفاً من الرؤف بعبادة طلباً للصالح العام وليسلم الناس من مضرة ما يحدث عليه بكثرة موتاه هو ومن جيف فطائس الحيوانات اذاما تعفنت واحدثت الامراض والاوباء . وفقه في خلقه شؤن .

فطن البهائم كما في الأيل

قال عليه السلام: فكر بالمفضل في الفطن التي جعلت في البهائم لمصلحتها بالطبع والخلقة لطفاً من الله تعالى لهم لكيلا يخلو من نعمه جل وعز أحد من خلقه لا يعقل ورويه، فان الأيل يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع عن شربه الماء خوفاً من أن يدب السم في جسمه فيقتله

الأيل لغة في ذكر الوعول، وهو حيوان وحشي شبيه ببقر الوحش ومن الحيوانات المجترة ذات الظلف، وتتميز ذكور هذه الفصيلة عن ظباها (اناثها) بوجود القرون العظيمة الصلدة فيها بعكس الاناث الجماء التي لا قرون لها. وللايل اربعة اصابع خلفية ولكن الاصبع الثاني والرابع ملتحمان بشكل العقدة الواحدة كما في بقية المجترات وليس له أسنان قواطع عليا بل له نابان ناميان لاسيما في الذكور.

ولهذا الحيوان الوحشي من الفطنة والذكاء العجيبين فيما يخصه لاموره الحياتية ما لا يحصل عليها الانسان العاقل المميز الفطن. فمن ذلك أن الايل الذكر يكون في بداية شهر آذار مجرداً من القرون فيبدو كالاتى ضعيفاً غير مخيف: ثم لاتنبت

ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً فيبح صحيحاً عالياً ولا يشرب منه ، ولو شرب الماء لمات من ساعته ، فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة عن تحمل الظمأ الشديد الغالب خوفاً من المضرة في الشرب وذلك مما لا يكاد الانسان العاقل المميز يضبطه من نفسه .

قرناه الأبعد مضي سنتين من عمره وحينئذ تنبت وتنمو في جبهته كالوتدين المستقيمين وفي السنة الثالثة يتشعبان ولا يزال هذا التشعب في زيادة إلى تمام السنة السادسة فيكونان كالشجرتين ، ومن العجيب انهما يكونان مغطايين بجلد مزودة باوعية دموية ترشح المادة العضوية فيهما اثناء النمو حتى يتم نمو القرون وعندما يصل نموهما التام يكون الجلد عليهما نحيفاً وإذا ما خرجا سال الدم بكثرة ، ثم يتكون بعد ذلك حول قاعدة كل قرن حلقة عظيمة تضيق على مجرى الدم اليهما من الأوعية الدموية فينقطع الغذاء عنهما وتفقد الجلدة حيويتها وتجف ثم تسقط بحك الحيوان قرونه بسيقان الاشجار ، وتبقى حينئذ القرون عارية ، فيعرضها الحيوان للشمس ليتصلبا ويشتدا .

ومن العجيب ايضاً انه يلقي قرنيه في كل سنة مرة ، ثم ينبتان من جديد وفي كل سنة تزداد فيهما شعبة واحدة يعرف الصيادون عمره من عدد الشعب في قرني الحيوان ، وهو في مدة سقوط قرنيه يختفي عن العيون ، إذ كاناهما سلاحه ، ومع عدمهما يخشى من كل مفترس او صياد ، ولكنه في هذه المدة التي يختفي فيها يسمن بدنه وتخرج قرناه ، وهو مع ذلك يخاف على نفسه أيضاً لسمنه وعدم صلابة قرنيه في الابتداء ، وهكذا حتى يقويا ويأمن من العدو فيخرج حذراً سريع السير .

والابل مولع بأكل الحيات ياكلها بكل شوق مبتدأ من ذنبها إلى رأسها ولا يبالي

إذا لسعته بالتوائها على جسمه ، فاذا لسعته سالت عيناه بالدموع من شدة حرارة السم إلى نقرتين كبيرتين تحت مجرى عينيه وفيهما تجهد هذه الدموع فتكون كالحجر يتخذ منه دريافاقا للسموم ولا سيما سموم الحيات ، شرباً ولطخاوهو المعروف عندنا(البادزهر الحيواني) . فاذا أكل الأيل الحية ولا سيما في فصل الصيف عطش عطشاً كثيراً شديداً حيث يحمى جوفه ويلتهب جسمه بحرارة السم فيطلب الماء بكل شوق ويقصد الغدير وأمثاله من مواقع الماء فاذا رآه وقف وهو يتنسمه ممتنعاً من شربه حائماً حوله إلى زمن طويل حتى يذهب ثوران السم وتهبط حرارته وإذا أدرك وشعر ببرودة في جوفه تقدم وشرب من الماء وعند ذلك لا يضره ، ولو كان شربه وهو على تلك الحال من الحرارة والالتهاب لصادف الماء ذلك السم الذي في جوفه وأختلط معه وانتشر في كل الجسم حتى يصل إلى القلب وسائر الاعضاء الحساسة فيموت ، لكنه بذكائه الفطري الذي أودعه الله فيه يدرك ذلك الخطر فيمتنع . وإلى هذه الحال في الوعول سمت الشعراء هذه الحيوانات (الحائمات) فقال بعضهم يخاطب محبوبه ويعتذر اليه من هجره وعدم الوصول اليه إذ يقول له :

هجرتك لاقلي مني ولكن ... رأيت بقاء ودك بالصدود
كهجر الحائمات الورد لما ... رأت ان المنية في الورود
تغيظ نفوسها ظمأ وتخشى ... حماماً فهي تنظر من بعيد
تصدّ بوجه ذي البغضاء عنه ... وترمقه بالحاظ الودود

والحائم لغة هو الذي يحوم ويدور حول الشيء ولا يصل اليه لمانع في نفسه او في شيء آخر من الخارج وإلى هذه الفطرة المودوعة في هذه الحيوان ، وهذه الفطنة العجيبة والذكاء الباهر فيه ، أراد الامام عليه السلام لفت نظر المفضل وغيره ممن

. . . . . .

أراد التفكير في خلق الله تعالى وحكمة صنعته اثباتاً لتوحيد الصانع وعلمه وقدرته ، وليدحض بذلك حجة الملحدين وأدلة المنكرين الذين لم يفكروا ليفهموا ولم يتعقلوا ليصلوا إلى معرفة الحقيقة فقال عليه السلام ، فكر يا مفضل في الفطن التي جعلت في البهائم لمصلحتها الخ .

الثعلب

قال عليه السلام : والثعلب إذا اعوزه المطعم تعاوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتاً فاذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها فاخذها . فمن أعان الثعلب العديم النطق والروية بهذه الحيلة ألا من توكل بتوجيه الرزق له

الثعلب من فصيلة الكلاب والذآب في هيئة جلده وسيقانه واقدامه ورأسه ويمتاز عنها بان بؤبؤ عينه اهليلجي الشكل وذنبه منفوش وهو كثير الوبر طويله قصير الارجل سريع الركض خفيف القفز يجيد السباحه .

ويعيش تحت الارض في حفر خاصة يحفرها هو بنفسه ويختبيء فيها اثناء النهار ويخرج ليلا سعياً ورآء عيشه ، فيتسلل إلى منازل القرى والأرياف ويفتك بما يجده فيها من دجاج وأرانب وطيور ، والدجاج أحب اليه من غيرها ، وقد يعبث بالكروم التي يحبها كثيراً ، وأحياناً يهاجم خليات النحل لكي يلتهم ما يجده فيها من العسل فاذا لم يجد أمثال هذه الاغذية عمد إلى جثث الموتى أو الفيران او الضفادع وحتى الحشرات والديدان فاكلها .

وقد خصه الله تعالى بقوة السمع والشم والبصر ، ومنحه الذكاء والحذر الشديدين بالنسبة إلى سائر الحيوانات الاخر . أما انثاه فانها إذا حملت كانت مدة

من هذا وشبعة فانه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما تقوى عليه السباع من مساورة الصيد اعين بالدهاء والفطنه والاحتيال لمعاشه .

حملها من (٦٠) إلى (٦٣) يوماً ، فاذا اكملت وضعت حملها في الحفرة التي يحفرها لها الذكر تحت الارض ، وعلى الاغلب يكون وضع حملها في الربيع ، ويكون عدد جراثها من (٣) إلى (٦) . فاذا خرج الجرو خرج مغطى بزغب اصهب محمر فيتعهده الأبوان معاً لمدة شهر واحد ، فيطعمانه من صيدهما حتى إذا جاء الخريف انفصل عن ابويه ليعيش بنفسه،والثعالب انواع كثيرة كلها وحشية لا محل لذكر تفصيلها هنا .

وقد أشتهر الثعلب (ابن آوى) بحيله وروغانه وشدة فطنته في طلب معاشه حتى ضرب به المثل (فمنها) انه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه فيظنه الحيوان او الطير ميتاً فاذا قرب منه لينعشه وثب عليه وأصطاده كما ذكره الامام(ع)(ومنها) انه إذا أراد أكل القنفذ وهو معروف بكثرة الشوك في جسمه وظهره مما يمنع الثعلب وغيره من أكله ، هجم عليه وقلبه على ظهره ، فاذا بانت بطنه بال عليها وعلى صدره فيحدث له دوران في رأسه ويرتخي جسمه ، فيشرع في أكله من بطنه مطمئناً حتى يستوفي كل لحمه ويترك ظهره واشواكه (ومنها) إنه إذا خاف عدواً او أراد اغتيال فريسته ضم براثن أقدامه عند المشي، فلا يطأ الارض ألا بباطن اقدامه لكيلا يرى لها اثر يتبعه عليه العدو ويسمع له صوت حتى يصل إلى الفريسه ومن العجيب انه يعمل مثل هذا في الارض السهلة ، فاذا مشى على الارض الصلبة عاد في سيره إلى حالته الطبيعية إذ لا يخشى فيها ظهور صوت أو اثر .

ومن المعروف ان الكلب عدوه بحيث إذا صادفه قتله ، فهو لم يزل يهرب منه

. . . . . .

ومن حيله في هربه من الكلب انه يعمد إلى تضليله إذا تبعه ، وذلك بان يعود إلى آثار أقدامه فيعثرها ، ثم يغير اتجاه سيره لكيلا يدرى اين سلك (ومنها) انه إذ كمن في وبر جلده البرغوث فانه ياخذ قطنه من وبره بفيه ثم يدخل النهر قليلا قليلا ـ وهو يجيد السباحة ـ وإذا دخل الماء صعد البرغوث إلى طرف رأسه فراراً من الماء ، وهكذا يصعد البرغوث كلما نزل الثعلب في الماء حتى يجتمع كله على الصوفة التي في فيه فيلقيها في الماء بسرعة ويهرب فيتخلص من البراغيث بهذه الحيلة ، إلى غير ذلك مما يدل على فطنته . وهنا اردف الامام عليه السلام مقاله في الأبل بذكر فطنة الثعلب وحيله وذكر شيئاً منها لينبه الغافل ويفهم الجاهل ان أمثال هذه الغرائز والطباع الفطرية ، وهذا الهدى الخلقي ، لا يعقل ان يكون بالمصادفة والاهمال ، وان يتصور أن يحدث عن غير قصد وعن غير صانع حكيم عالم قادر أراد بحكمته وصنع بعلمه وقدرته ، لذلك قال عليه السلام :

فمن اعان الثعلب العديم النطق والروية بهذه الحيلة الخ ومعلوم أن المراد من النطق هنا هو الادراك والعقل اللذين بهما يسترشد صاحبهما أمثال هذه الحيل لتحصيل معاشه او سائر حاجياته الاخرى ، كالانسان الناطق المتروى الذي يتخذ مختلف السبل وشتى الطرق بعقله ونطقه لانجاز مراماته وحاجياته .

أجل فان الذي تكفل بتوجيه رزقه وتحصيل معاشه من هذا وشبهه مع ضعفه وعدم قدرته على ما تستعمله السباع وتقوى عليه في صيد فريساتها لهو الذي اعانه بهذا الدهاء والفطنة والاحتيال لطلب القوت والدفاع عن النفس والهروب من العدو ، فسبحان من جلت قدرته وعظم سلطانه ٢٩١٠

الدلفين

قال عليه السلام : والدلفين يلتمس صيد الطير فتكون حيلته فى ذلك أن يأخذ السمك فيقتله ويشرحه حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته ويثور الماء حتى لا يبين شخصه ، فاذا وقع الطير على السمك الطافى وثب عليها

الدلفين بضم الدال وتشديد اللام المكسورة كما فى معاجم الحيوانات ، وقد يقال له دولفين والجمع دلافين ويسمى عند العرب (دخس او نخس) وهو حوت بحري قد يبلغ طولها عشرة أقدام ولكن الغالب ستة أقدام وجسمه كالزق المنفوخ ورأسه صغير يستدق حتى يكون كالمنقار ، وفكوكه مسلحة بنحو (١٠٠) سن من الاعلى والاسفل متداخله ببعضها . وله رئه يتنفس منها ، وليس لدواب البحر رئة مثله ، لذلك إذا لبث في عمق البحر مدة حبس نفسه فيصعد بسرعه السهم طلباً للتنفس وقد يرتفع في وثبته إلى أعلى من السفينه كما تراه الركاب . وهو يلد ويرضع أولاده وهي تتبعه حيث ذهب ، ولا يلد إلا في الصيف ، ومن طباعه انه لا يوجد ذكر الا وانثاه معه ، وإذا صيد جاءت دلافين كثيرة بكل سرعة لقتال عدوه وصائده . وهو يعيش فى المياه الاستوائية والمعتدله في جميع المحيطات جماعات جماعات ، وقيل انه

وأصطادها . فانظر إلى هذه الحيلة كيف جعلت طبعاً في هـــذه البهيمة لبعض المصلحة .

يوجد في نيل مصر من جهة البحر الملح لان البحر يقذفه في النيل . وهو من طبعه لا يؤذي احداً ويأنس بالناس ولا سيما الصبيان ، واذا رأى الغريق فانه يدفعه إلى الساحل حتى ينجيه او انه يمكنه من ظهره ليستعين الغريق به على السباحة حتى ينجو .

ومن عاداته ايضاً انه يرافق المراكب إلى مسافات بعيدة ويغالب الأمواج ويقوم بحركات مسلية للركاب يستلفت بها أنظارهم . ومن عجيب حالاته إنه إذا أصطيد احد الزوجين صرخ الآخر وشخر حزناً عليه ولا يبرح حتى يحمله الصيادون ويغيب عن بصره . وهو يفترس الاسماك بكثرة وقد يأكل الطير إذا ورد ساحل البحر او في البحر على سمكة طافية مثلا ، لذلك إذا التمس صيد الطير احتال له بأن يأخذ السمكة ويقتلها ويشرح جسمها فتطفو على وجه الماء فاذا فعل ذلك كمن تحتها واثار الماء الذي عليه لكيلا يبين شخصه للطير فيهرب ، فاذا وقع الطير على جسم تلك السمكة الطافية وثب عليه واصطاده وبذلك يحصل على اكلة طيبه لذيذة ، وإلى هذه الحيلة أشار الامام عليه السلام بقوله : فانظر إلى هذه الحيلة لحا ليفكر الانسان العاقل في هـــذه الفطنة كيف جعلت غريزة في هـذه البهيمة لمصلحتها في طلب معاشها وهل يمكن ان يكون مثل هذا وجد لا عن قصد بل بالمصادفة والاهمال ، اللهم ان ذلك الاجهل وعناد ومكابرة من الحاجدين لا يسنده دليل معقول .

التنين والسحاب

قال المفضل : فقلت أخبرني يا مولاي عن التنين والسحاب . فقال عليه السلام : ان السحاب كالموكل به يختطفه حيثما ثقفه كما يختطف حجر المقناطيس الحديد فهو لا يطلع رأسه في الارض خوفاً من السحاب ولا يخرج

بعد ان ذكر الامام عليه السلام ما في بعض الحيوانات من العبر والآيات في خلقتها ، وما اودع فيها من الفطن والحيل في طلب رزقها ودفع العدو عن أنفسها ، ليعرف المتأمل بعض حكمة الصنع وأبداع الخالق . قال المفضل : فقلت له عليه السلام : اخبرني يا مولاي عن التنين والسحاب ، وإنما سأله عن ذلك دون غيره لانه كان المعروف لدى العامة يومذاك ان السحاب (الغيم) يختطف التنين وإن التنين يخاف من الغيوم ، وهذه ظاهرة مشهورة لدى الناس وإن كان لا يعرف منشؤها ، لذلك طلب المفضل الاستيضاح من الامام عليه السلام ليجيب من يسأله عنها من منكرى الحكمة في الخلقة وجاحدى الصانع القدير . فاجابه الامام عليه السلام بقوله : أن السحاب كالموكل به الخ .

اقول : أنا لم نشاهد ولم نقرأ ولم نسمع بان سحاباً اختطف يوماً ما ثنينا او حيواناً آخر غيره أختطاف المقناطيس للحديد ، ولكن الامام عليه السلام قال ذلك وهو

ألا في القيظ مرة إذا صحت السماء فلم يكن فيها نكتة من غيمة قلت : فلم وكل السحاب بالتنين يرصده ويختطفه إذا وجده ، قال : ليدفع عن الناس مضرته .

لا ينطق جزافاً ولا يتكلم (وحاشاه) عبثاً . على اننا نستشعر من قوله عليه السلام (كالموكل به) ولم يقل (موكل به) انه قد شبهه ولم يكن الاختطاف حقيقة ، بل أن هذا الحيوان العظيم الضرر والذي نخافه ونخشاه اكثر حيوانات البر والبحر بل وحتى الانسان لما أراد الله تعالى رفع ضرره عن الانسان والحيوان ، أدخل في مخيلته أن السحاب يختطفه إذا خرج فهو لم يزل يخاف الغيم في السماء فلا يخرج إلا في القيظ عندما يأمن من وجود غيمة في السماء وذلك لتعود الحيوانات لطلب رزقها عند اختفائه بكل طمأنينه وهدو . فاذا عرفت خروجه تراجعت إلى مكانها آمنه من شره . هذا ما امكننا توجيه هذه العبارة به .

وعلى كل حال فان هذا اللطف في ابداع هذا الخيال في رأس مثل هذا الحيوان المهيب المخيف ايضاً من العبر لمن اعتبر .

وأخيراً وأنا اكتب هذه الاسطر وأقلب بعض الكتب في مكتبة الامام أمير المؤمنين عليه السلام إذ عثرت على كتاب فارسي باسم (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) للاستاذ العلامة زكريا بن محمد بن محمود المكوني القزويني المتوفى ٦٣٢ سنة وقد طبع في طهران في المطبعة المركزية لناصر خسرو وإذا به يقول ما ترجمته:

التنين حيوان هائل مهيب الشكل كبير الجسم ، قال الشيخ الرئيس : إن اصغره خمسة أذرع واطوله ثلاثون ذراعاً وله عينان كبيرتان وأنياب ، ويكثر في الهند والنوبة ، وهو يبتلع كلما يصادف من الحيوانات فاذا ابتلعه جاء إلى شجرة

قوية والتف حولها حتى تتكسر عظام المبلوع ثم يذهب إلى الماء لتقل حرارة جوفه وقيل انه ظهر في سنة ٧٢٤ هجرية تنين هائل عظيم في (عسيران) من أعمال حلب وكان كلما مر على شيء احرقه حتى أحرق كثيراً من الناس والدور ، فهربت الناس والحيوانات منه وهو يمشي ويحرق وأخيراً ارسل الله تعالى عليه سحابة حملته في الهواء ، ولكنه مد ذنبه ولفه على حجر كبير فرفعه معه والناس ينظرون اليه ويعجبون من ذلك حتى غاب عن الابصار فشكروا الله تعالى على ذلك وهـــذا من العجائب (انتهى) .

وقد ذكرته معاجم الحيوانات فقالوا : ان التنين حيوان من الزواحف وضرب من الحيات البحريه كاكبر ما يكون من الأسماك ، وقيل انه طويل كالنخلة السحوق له يدان قصيرتان ورجلان طويلتان وعينان حمراوان كالدم براقتان وفم وجوف واسعان يبلع كثيراً من الحيوانات ، وفي فمه اسنان وانياب مثل اسنة الرماح ، لذلك يخافه الحيوان البري والبحري ، فاذا تحرك في البحر ماج البحر لشدة قوته .

وقد أكثر القـدماء في وصفه وتهويله وتعظيمه . وأخيراً وانا أتصفح دائرة المعارف للبستاني إذ عثرت على (التنين) في بحث الزوبعـــة البحرية إذ يقول : الزوبعة البحرية أو (التنين) تشغل من سطح الارض مسافـة مستديرة فتضطرب المـياه وتفور كان كتلة منها تحاول الارتفاع في الهواء على هيئة هرم مقطوع ، ويحصل على سطح البحر أضطراب مخصوص حيناً يكون في الجزء المقابل له من السماء ، غمامة شكلها مخروطي مقلوب والغالب حصول الأمرين معاً في وقت واحد فاذا كان ذلك جاش الماء وازبد وتصاعد الزبد مسرعاً حتى يلاقي العمود المتـدلي

من السحاب كخروط منقلب أشبه بخرطوم الفيل فيتكامل العمود منتصباً بين الماء والسحاب وتدور الريح حوله دوراناً عنيفاً ويضطرب الزبد فى البحر ويدور دوران الزوبعة البرية ، ويشاهد غالباً على سطح الكتلة ثورات كهربائية ذات دمدمة وأصوات قوية ، وإذا أنقطع العمود وخف الاضطراب هطلت الامطار عذبة المياه ، فاذا حدثت الزوبعة فى البحر على ما تقدم لم تستقر فى موضع واحد بل سارت سيراً سريعاً ، فان صادفت سفينة فى البحر أجتذبتها ولعبت بها كمصفور ثم ابتلعتها بجملتها

وقد ذكرت لهذه الزوابع البحرية نتائج مهولة كثيرة ، وإذا صحبتها انواء وعواصف فهناك البلاء المبرم ، أما إذا كان العمود واحداً ولم تصحبه انواء ورياح شديدة خف شرها وعولجت باطلاق المدافع عن بعد على مركز الكتلة المضطربة فينقطع العمود وتنطبع فى الهواء حركة سريعة توقف حركتها ويسمع لها هدير شديد ثم لا تلبث أن تزول . (٥١) .

هكذا عثرت عليه فى دائرة معارف البستاني فاطمئن خاطري إذا لم يكن فكري يعضم تلك الاقوال المتقدمة وانه حيوان بحري له الصفات المذكورة وإن الغيمة تجذبه ،

وتحققت ايضاً أن الفضل لم يسأل الامام عليه السلام عن التنين باعتبار انه حيوان وإنما سأله عن هـــذه الظاهرة العجيبة ولم يكن فى جواب الامام عليه السلام ما يدل على أنه حيوان ولو تأملنا الجواب بدقة لرأيناه دالا على نفس هذه الزوبعة البحرية غير أن ذلك يحتاج إلى مقدمات مفصلة لا يسعها هذا المختصر . وعلى كل حال فان عظيم الخلقة آية عظيم الخالق فسبحان من له فى كل شيء آية تدل على وحدانيته .

الـــذرة

قال المفضل : فقلت قد وصفت لي يا مولاي من أمر البهائم ما فيه معتبر لمن أعتبر فصف لي الذرة والنملة والطير . فقال (ع) : يا مفضل تأمل وجه الذرة الحقيرة الصغيرة هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها . فمن أين

الذر صغار النمل الاحمر ومفردها ذرة قيل ان مائة منها وزن حبة من الشعير فكأنها جزء من مائة جزء من حبة الشعير وقد يطلق الذر ويراد به الهباء المنتشر فى شعاع الشمس الداخل من النافذة (وليس هذا مورد بحثنا) وهذا الحيوان الحقير الصغير الذي يشبه به كلما هو غاية فى الصغر له من التقدير الغريب والنظر إلى العواقب ومشاكلة افعال الانسان فى أفكاره وتدبيره ما يورث العجب والاعتبار من اتقان الخلقة وأحكام الصنع ، فانه كالنمل فى العمل والنظام والتدبير ، حيث لا يضيع أوقات امكان الحزم حينما يدخر قوت الشتاء فى الصيف فى حفرته التي يعدها لذلك ، وقد يبلغ فى تفقده والنظر فى عواقب امره انه يخاف على الحبوب المدخرة أن تعفن او تسوس بطول الادخار فيخرجها الى ظهر الارض لتجف بالنسيم فلا تفسد ، وقد ينقر موضع القطمير (شق الحبة) لكيلا تنبت وأحياناً يفلق الحبة أنصافاً إلا حبة الكزبرة فانه يفلقها أرباعا لهدايته بان نصف الكزبرة تنبت . فالذرة من أكثر الحيوانات فطنة

هذا التقدير والصواب فى خلق الذرة إلا من التقدير القائم في صغير الخلق وكبيره .

بل هي أحزم من كثير من الناس . ومن عجائبها انها تسحب ما هو أثقل منها بعشرات المرات او أكثر ، فاذا صادفت ما هو اكثر او أثقل ولم يمكنها سحبه أو حمله مضت إلى حجرها وعادت ومعها صويحباتها ممتدة كالخيط الاسود من الذر ثم تعاون الجميع على السحب ، وهذا دليل على ما عندها من صفة التعاون وبعد الهمة والجرأة والحزم ومن حالاتها إنها إذا رأت فى حية خدشاً لم تقلع عنها حتى تقتلها اكلا هي ورفيقاتها

ولاجل ما ذكرناه واكثر من ذلك مما أودع الصانع الحكيم فيها من الابداع قال الامام عليه السلام : يا مفضل تأمل وجه الذرة الحقيرة الصغيرة التي لم تدر بوجودها إلا بالتأمل هل تجد فيه نقصاً عما يصلحها ويلزم لها، أقول : لا احسب (والله أعلم) أن المراد من قول الامام عليه السلام وجه الذرة هو مقـــدم صورتها الحاوي للعين والفم والانف بل المراد هو اتجاه الذرة وتوجهاتها في أعمالها المتقنة المنظمة من مثل ما ذكرناه بدليل قوله عليه السلام هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها . ولو كان مراده نفس وجهها لقال فيه صلاحه لان الوجه مذكر ، ثم قوله عليه السلام بعد ذلك : فمن اين هذا التقدير والصواب في خلق الذرة إلا من التدبير (التقدير) القائم في صغير الخلق وكبيره ، فسبحانه من باري حكيم .

النمل

قال عليه السلام: أنظر إلى النمل وأحتشاده فى جمع القوت وأعداده فانك ترى الجماعة منها إذا نقلت الحب إلى زبيتها بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام أو غيره ، بل للنمل في ذلك من الجد والتشمير ما ليس للناس

النمل حيوان صغير ذو جسم مستطيل وعيون منحية غير مستديرة وفي رأسه قرون نائتة تتحرك إلى الجهات ، وينقسم بطنه إلى حلقات تتفرع من كل حلقة أرجل ، وتنتهي كل رجل من أرجله بخمسة اجزاء وفي آخر كل جزء ابرتان محددتان يفصلها شعر قصير كثيف .

وللنمل أنواع كثيرة قد تبلغ الألفي نوع (أو صنف) حسب أحصاء العلماء الباحثين ، وكلها تختلف في حياتها الاجتماعية وعاداتها وطباعها ولكن تجمعها أمور ، فان في جميعها ذكور وأناث مجنحة وعمال لا أجنحة لها ، وإن العمال منها تقسم إلى صغار وكبار وجنود ، وهذه العمال لم تكن أناثاً فقط كما في جماعة النحل بل أن العمال منها ذكور واناث ، أما الجنود منها التي لا أجنحة لها لا انتاج لها ولا عمل سوى القتال والدفاع عن جماعتها لاسيما قتال الجماعة الاخرى من النمل وهي قد

مثله ، أما تراهم يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل ، ثم يعمدون إلى الحب فيقطعونه قطعا لكيلا لا ينبت فيفسد عليهم فان أصابه

تغزو غيرها من النمل فاذا أنتصرت نهبت بيوت المغلوبة وأخذت بيضها لتحفظه عندها في بيوتها حتى إذا نفقت الدودة عن البيوض ثم نمت وكبرت أنخذتها أرقاء لها وعبيد لتجمع الطعام وتبني البيوت وتعتني بصغار ساداتها .

وهناك فريق آخر غير الجنود وظيفتها وضع البيض لاعداد ابناء المستقبل في الاماكن الخاصة بها . وفريق ثالث مسئوليتها العناية بالبيض والفراخ الفاقسة منه عدا فريق الجنود التي ذكرنا أن وظيفتها حراسة مدخل المستعمرة (الزبية) ومكافحة العدو . أما العمال فان عليها أن تذهب للتفتيش عن الغذاء ، فاذا وجدته حملته إلى مساكن النمل بنفسها أو على أظهر الارقاء التي اسروها من الجماعة الاخرى في الغزو لتتغذى به كل أفراد النمل على السواء . وهي تتطلب غذائها في كل مكان فيخبر بعضها بعضاً إذا وجده فيأتون اليه العمال ساعين ليأخذوا منه ما يستطيعون .

ومن غريب طباعها الجليلة أن كل فرد منها يجتهد في أصلاح شأن الآخر من جماعته بل شأن العامة غير مختلس لشيء من رزق أحد من صحبه وجماعته .

والنمل كالذر (والذر منه) يدخر في الصيف قوت شتائه ، فاذا خاف عليه من التعفن أو التسوس او من الندي بمجاورته لباطن الارض الرطب ، أخرجه إلى الشمس ليجف ثم يعيده إلى محله ، وقد يخشى على الحبة المدخرة ان تنبت في الارض فينقرها من المواضع الذي ينجم منه النبات ، أو ان يفلقها لنصفين ، وقد يفلق بعض الحبوب كحب الكزبرة إلى أرباع لان نصف الكزبرة أيضاً ينبت ، فهو لذلك

أخرجوه فنشروه حتى يجف ، ثم لا يتخذ النمل الزبية ألا في نشز من الارض كيلا يفيض السيل فيغرقها وكل هذا منه بلا عقل ولا روية بل خلقة خلق عليها لمصلحة من الله جل وعز .

عامل يقظ ملهم مدبر .

وقد لوحظ مراراً أن النملة إذا وقعت على طعام حلو لم تمض مدة قصيرة حتى يهرع اليه عدد كبير منها وعلى الأكثر يكون عددها مناسباً مع مقدار ذلك الطعام الحلو

وهذه ظاهرة عجيبة تبهر العقول ، وقد بحث كثير من العلماء ليهتدوا إلى سرها ، وأخيراً اهتدى عالم الماني بعد كثير من التجارب والاستقراء إلى أن النملة إذا وقعت على مقدار كبير من الطعام الحلو هرعت هي إلى رفيقاتها في مسكنها فرقصت فيه بصورة عرفها هو أنها رقصة فتزدحم حولها النمل وتخرج بهم إلى محل الطعام وكلهم يرقصون حتى يجتمعوا على أكله ، أما إذا كان مقداره قليلا فانها تدخل إلى المسكن لكنها لا ترقص بل تدخل وتخرج فيتبعها قليل من النمل ، فسبحان من أعطى كل نفس هداها .

ومن عجيب أعمال النمل بالنسبة إلى غذائها أيضاً انها قد تخزنه احياناً لاسيما إذا كان حلواً كالعسل وأشباهه في بطون بعض النمل المختص منها بهذا العمل وذلك بان يلتهم هـــذا القسم المختص ذلك الغذاء الحلو حتى تنتفخ أجسامها وتصبح كالكيس للآن ، فاذا أحتاج النمل إلى هـذه الذخيرة المخزونة في بطون هذا القسم المتدلي في سقوف بعض الغرف او الاماكن الاخرى عمد اليها وكلفها بافراغ شيء من ما هو مخزون في بطنها فتعطيه حسب حاجته . وبعض النمل يزرع الفطريات

. . . . . .

على أوراق النبات المشققة في أماكن مظلمة ممنوع له فيتمكن بذلك من تحضير العفن والفطر الذي يقتات به ايضاً .

وهو أيضاً كالذر يحمل أضعاف وزنه مراراً حتى قيل انه يحمل ثقلا يعادل وزنه عشرين مرة .

وأما ما حكاه القرآن الكريم من كلام النمل مع سليمان عليه السلام فانه لدليل قاطع على أن لها منطقاً وبياناً وقولا يفصل بين المعاني التي يقصدها غير انا لا نفقه ذلك

قال تعالى : (حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها) وهنا في هذه الآية قد أخبر القرآن العظيم إنها عرفت سليمان وتكلمت مع سايرالنمل وحذرتها من أن تحطم وإن سليمان عرف منطقها فتبسم من قولها ومن هنا ايضاً نعرف انها كيف تخبر صويحباتها بالخروج معها لطلب الطعام عندما تظفر به . أما زباياها جمع زبية أعني مساكنها فهي مؤلفه من طبقات ذات أروقه وغرف بعضها للطعام وبعضها لحفظ البيض والفقس والعناية بالصغار ، وبعضها كاصطبلات لمواشيها وعمالها والنمل يتخذ هذه الزبايا تحت الارض أو بين الشقوق أو في ثنايا اوراق الشجر او في الصخور أو اسوار البيوت او في ثقوب الاخشاب . أما في الصحاري والبر فانها لا تتخذها إلا على نشز من الارض لكيلا يفيض عليها الماء اذا سال من الاعلى فيغرقها وهذا العمل منها غريزة وفطرة دون تعليم أو روية .

وليعلم أن هذا الذي ذكرناه من حياة هذا الحيوان العجيب ليس إلا قليلا من كثير مما توصل اليه الباحثون الذين درسوا حالات النمل ملياً مدة سنين واعوام

في الأودية والصحاري .

فلعمري أن هذه الاعمال الجبارة وهذه الغرائز والطباع المودعة في هذا الجرم الضعيف الحقير لمما يحير العقول ويدهش الالباب . وقد أشار الامام عليه السلام إلى أغلبها بما ذكره للمفضل ابن عمر وأمره بالاعتبار به وبامثاله .

وبديهي أن هذا العمل المتقن وهذا الاحتشاد على جمع القوت وهذا التآلف ما بينها وعمل الفرد لصالح الجماعـــة وبناء المساكن بهذه الدقة والنظام لم يكن إلا للغرائز التي أودعها فيها خالقها العالم الحكيم وللفطرة التي فطرها الله عليها والافاي عقل وروية عند هذا الحيوان الضعيف الصغير الحقير في تدبير كل ذلك فسبحان المبدع العظيم .

اسد الذباب

قال عليه السلام : أنظر الى هـــذا الذي يقال له الليث وتسميه العامة أسد الذباب وما أعطي من الحيلة والرفق في معاشه ، فانك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه تركه ملياً حتى كأنه موات لاحراك به فاذا رأى الذباب قد أطمأن وغفل عنه دب دبيباً رقيقا حتى يكون منه بحيث

ان الليث او اسد الذباب او ليث الذباب على اختلاف تسميته ، صنف معروف من اصناف العناكب يصيد الذباب كصيد الاسود في الوثبة والاختطاف والاحتيال وكيفية صيده لها انه اذا رأى الذبابة ساقطة بالقرب منه لطأ نفسه ولصقها بالارض بحيث تسكن جميع جوارحه كانه ميت استعداداً للوثوب عليها حتى اذا رأى منها غرة وشعر فيها الاطمئنان دب اليها دبيباً ناعماً بكل رفق ووثب عليها بكل سرعة ولباقة واختطفها فلا يخطاها واذا اخذها ضم بنفسه عليهـــا واشتمل بكل جسمه على جسمها لكيلا تنجو وهكذا يبقى قابضاً عليها حتى يحس بانها قدضعفت عن الحركة واسترخت اعضاؤها فيقبل عليها ليفترسها ويمتصها ولسبب هذه الوثبة التي تشبه وثبة الاسد سمي اسد الذباب .

وهو دويبة ذات ستة عيون كبار وثمان ارجل قصار . وقـــد نسب

تناله وثبته ،ثم يثب عليه فيأخذه ، فاذا اخذه أشتمل عليه بجسمه كله مخافة أن ينجو منه، فلا يزال قابضا عليه حتى يحس بانه قد ضعف وأسترخى ثم يقبل عليه فيفترسه ويحى بذلك منه .

الى افلاطون انه قال : ان احرص الاشياء الذباب وافنع الاشياء العنكبوت وقد جعل الله رزق اقنعها في احرصها .

ولهذه الظاهرة العجيبة فى هذه الدويبة الحقيرة وهذه الفطنة والحيلة الفطرية فيها اراد الامام عليه السلام لفت نظر اهل البصيرة والعقل الى ان يتأملوها ويعتبروا ثم يفكروا في هذه الخلقة البديعة وهذا الابداع العجيب ليعرفوا بعد ذلك جهل المنكرين للحكمة وعناد الجاحدين للصانع . هدانا الله الى الصراط المستقيم غير صراط المغضوب عليهم ولا الضالين .

العنكبوت

قال عليه السلام : أما العنكبوت فانه ينسج ذلك النسيج فيتخذه شركا ومصيدة للذباب ثم يتمكن فى جوفه فاذا أنشب فيه الذباب أحال عليه يلذعه ساعة بعد ساعة فيعيش بذلك منه ، فذلك يحكى صيد الكلاب

العنكبوت حشرة ضعيفة ترى في كثير من البيوت حيث تنسج بيوتها في الزوايا وخلف الابواب والشبابيك لتصطاد الذباب وما شاكلها من الحشرات الصغيرة لتقتات به . ويتركب جسمها من قسمين امامي وفيه الرأس والصدر وخلفي وفيه البطن ، وفي مقدمة رأسها قرنان ينتهي كل منهما بمخلب للقبض على الفريسة وفى تجويفه يجرى سم قاتل للحشرات التي تعتاش عليها وذلك ليتسنى لها قتلها قبل اكلها وخلف القرنين زوج ثاني من الملاحق أصغر من الزوج الاول ويسمى الزوج الثانى هذا الملمس القدمى ووظيفته الحس ، ثم في صدرها اربعة ازواج اخر هي بمقام الارجل للمشى ، ثم ان هذه الارجل المركبه من سبع عقد تنتهي بمخالب ثلاثة مسننه يكثر فيها الشعر ليتمكن بذلك من المشي على السقوف والجدران دون ان يسقط .

امافم العنكبوت فهو فتحة صغيرة تقع بين قاعدتي الزوج الثانى ، وهو يقوم

والقعود وهذا يحكي صيد الاشراك والحبائل، فانظر هذه الدويبة الضعيفة كيف جعل في طبعها ما لا يبلغه الانسان ألا بالحيلة وأستعمال الآلات فيها فلا تزدري بالشيء إذا كانت العبرة فيه واضحة كالذرة والنمله وما أشبه

بامتصاص السوائل المغذية من الحشرات اوغيرها ، لأن العناكب لا تأكل طعام صلباً وهي تستخدم ارجلها في غزل الخيوط وتوجيهها الى الاتجاه الذى تريده ليكون النسيج على الشكل الملائم لحالتها الحياتية .

ثم أن لأغلب انواع العناكب ثمان عيون فى رأسها فهى لذلك ترى الأشياء فى جميع الاتجاهات من غير أن تحرك رأسها أو ان تحول جسمها ، وفى أسفل بطن العنكبوت أربع بقع تسمى أصطلاحا (بقطع الغزل) يخرج منها سائل لزج ، وهذه البقع كلها مثقبة تخترقها مآت من الانابيب المجهرية ومن هذه الانابيب يخرج السائل اللزج الذي تفرزه الغدد الحريرية فى البقع الاربع المذكوره ، وما أن يخرج ذلك السائل حتى يجمد ويتصلب ويشكل خيطاً دقيقاً تغزله العناكب بارجلها لبناء الاعشاش ونسج البيوت ، وهذه الخيوط مع دقتها لينه ذات مرونه وتستطيع أن تحمل ثقلا يعادل ثقل العنكبوت مرات من غير أن تنقطع .

وللعنكبوت فتحة تناسلية تقع فى الجهة السفلى من مقدمة البطن ، كما يوجد فى طرفى هذه الفتحة شقان صغيران هما فى مقام اعضاء التنفس لها . أما فتحة المخرج فانها تقع فى نهاية البطن من الاسفل ، أما كيفيه تناسلها فان الانثى تلقى بيضها فى شرنقة حريرية ملتصقة بالنسيج أو بنباتها وقد تحمل الانثى بيضها مدة حتى يفقس فاذا فقس تركت الافراخ شرانقها ومضت راكضة .

ذلك ، فان المعنى النفيس قد يمثل بالشيء الحقير فلا يضع منه ذلك كما لا يضع من الدينار وهو من ذهب أن يوزن بمثقال من حديد .

وللعناكب أنواع كثيرة منها عنكبوت الحدائق وعنكبوت المنازل وعنكبوت الماء ، وهذا الاخير يعيش في الماء فيصنع لنفسه عشاً على شكل منطاد (بالون) من خيوط بيت العنكبوت ويعلقه بشيء تحت الماء ومن عجيب أمره انه يمسك ببراعة فائقة فقاعة من الهواء في شعر تحت جسمه فيحملها إلى الماء ويطلقها تحت العش وهكذا يكرر العملية حتى ينتفخ العش ويقف مستقيماً بين الماءين فاذا كمل ولدت الانثى فيه صغارها وربتهم آمنة مطمئنة من هبوب الارياح والهواء . وتستعمل العناكب نسيجها شركا تصطاد به الحشرات فاذا وقعت الحشرة في النسيج تعذر افلاتها بل وكل حركة منها تزيدها اشتباكا بالخيوط فيصول عليها العنكبوت ويلذعها ثم يمتص دمها وعصارة اعضائها ، وهذا النوع من الصيد يشبه صيد الانسان بالحبائل والاشراك ، أما صيد أسد الذباب المتقدم فيشبه صيد الكلاب والفهود في الانقضاض على الفريسة وتمزيقها وابتلاع لحومها وتكسير عظامها . قال الامام عليه السلام : فانظر هذه الدويبة الضعيفة الخ أقول : أفلا يدل هذا وأمثاله على وجود صانع قدير عالم حكيم ؟ وهل يتصور متصور صدور هذا الابداع عن مصادفة وأهمال وبدون قصد ؟ على أن في كل شيء له آية تدل على انه واحد . وعليه فلا ينبغي ان يزدري او يهزأ المكابر والجاحد . بالاستدلال على وحدانية العظيم بمثل من مخلوقه الحقير ما دامت العبرة فيه واضحة وبعد ان مثل الله تعالى نوره بالمشكوة في القرآن الكريم في قوله (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب

. . . . . .

دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم) وقد نظم الشاعر مضمون هذه الآية فى قصة شهيرة بقوله :

لا تعجبوا ضربي له من دونه مثلا شرود أفى الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل بنوره مثلا من المشكوة والنبراس

فعلم من هذا أن الشيء النفيس قد يمثل بالحقير فلا يضع من قدره كمثل الدينار الذي هو من الذهب اشرف المعادن قد يوزن بالحديد وهو أقل المعادن قدراً بالنسبة للذهب فليعتبر أولوا الالباب .

جسم الطائر

قال الامام عليه السلام : تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته ، فانه حين قدر أن يكون طائراً في الجو خفف جسمه وأدمج خلقه وأقتصر من القوائم الاربع على أثنين ومن الاصابع الخمس على أربعة ومن منفذين للزبل

لقد ذكرنا تشريح الطير وهيكله العظمي فى مبحث الطير من هذه الرسالة وهنا نذكر ما أشار اليه الامام عليه السلام من خفة جسمه وبيان قوائمه وأصابعه والجؤجؤ ومنفذ الفضلات فنقول : ان الله تعالى لما شاء بحكمته وقدر بعلمه أن يكون هذا الحيوان طائراً فى الجو اقتضى ان يكون خفيف الجسم مختصر الخلقه ليحمله الهواء ويستطيع ان يرتفع هو دون ثقل او تكلف ولأجله خلقت عظامه خفيفه مجوفة مليئة بالفجوات الهوائية الكثيرة التي يأتيها الهواء من الرئتين ويدبهي أن هذا مما يساعد على الطيران فى الجو والفضاء ، كما أقتصر على قائمتين فى المشي بدلا من الاربعة فى غيره ، ولهذا الغرض وغيره جعلت عظام عنقه طويلة ومتحركة تلتوى بسهولة ليتمكن من أستعمال منقاره فى التقاط غذائه من حبوب وغيرها ، وفى بناء الاعشاش وغيرها من مقاصد وحاجيات ، أما عظام الجذع وفقرات الظهر فهي

والبول على واحد يجمعها ، ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيفما أخذفيه كما جعلت السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل

مندمجة مع بعضها تماماً بحيث تؤلف محوراً هيكلياً صلداً يستند عليه جسم الطائر عند الطيران . وتوجد له اربع او خمس فقرات ذنبية غير ملتحمة فى مؤخره تنتهي بعظم مكون من اندماج خمس او ست فقرات أيضاً ترتكز عليه ريشات الذنب الطوال المتان ، أما باقي فقرات الذنب الطليقة فهي التي تسمح للذنب ان يتحرك إلى الجوانب وإن يكون كالسكان له ينعض ويطير به ، كالسفينة التي يستقيم سيرها على الماء بواسطة سكانها ، وله أضلاع صدرية وعظم القص وله جؤجؤ فى وسط صدره محدد من الامام لكي يسهل عليه خرق الهواء. فى طيرانه كيفما أراد كجؤجؤ السفينة فى الماء وعلى هذا الجؤجؤ ترتكز الاضلاع المحركة للاجنحة نشراً عند الارتفاع وطياً عند الهبوط والوقوف على الارض .

ثم ان للطيور على وجه الاجمال اجهزة كثيرة كاجهزة الانسان والحيوان ، فان لها جهاز هضم وجهاز الدورة الدموية وجهاز التنفس وجهاز الابراز وجهاز التناسل

أما جهاز الهضم فانه يتبدى من الفم إلى المريء الذي ينتفخ فيشكل حويصله تنقع فيها الحبوب الملتقطة ، ثم المعدة المركبة من قسم أمامي ذي جدران غدية تميكة تفرز العصير الهضمي ، وقسم خلفي يسمى (القانصة) تطحن الحبوب التي ترد اليها من الحويصله بمساعدة الحصى التي يبتلعها الطير لهـــذا الغرض ، وتنتهي هذه القناة الهضمية بفجوة مشتركة بين افراز الغائط وأفراز البول من الكليتين عن طريق المحالب ، إذ ليس للطير مثانة للبول بل هذا هو الجهاز البولي .

في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكسي كله الريش ليتداخله الهواء فيقله .

أما جهاز التناسل فقد ذكر في تشريح بيضة الطير وتكوينها كما سيأتي في محله من هذه الرسالة .

أما جهاز التنفس فهو الرئتان بمساعدة أكياس هوائية تتصل بشعب الرئتين وتمتلىء بالشهيق والزفير كغيرها من الحيوانات الرئوية الاخرى .

أما الجهاز العصبي للحس والادراك ، فان دماغ الطير قصير وعريض ونخيخه كبير ، وكذلك فصوص البصر بخلاف فصوص الشم الصغيرة جداً والتي لا تدرك الروائح بها ألا قليلا ومثلها حاسة الذوق ، ولكن السمع والبصر حادتان عند الطير وبهما يستعين على أعماله الضرورية الحيوية .

والطير كبد تتصل بالامعاء وطحال وزوج من الغدد الدرقية ، كما ان له قلباً وللقلب بطينين واذينين رفيقتي الجدران ، بواسطتهما تحصل في الطير الدورتان الدمويتان الصغرى والكبرى غير ان دم البطين الايمن لا يختلط مع دم البطين الايسر

وكل هذا الجسم الخفيف المجوف العظام المليء في جوفه بالهواء قد كسي بالريش لتخفيف بدنه وليتداخله الهواء أيضا فيساعده على حركاته السريعة في الفضاء وهذا الريش كما سنذكره مجوف زيادة على خفته كما سيأتي .

حرارة جوف الطير ومنقاره

قال عليه السلام : ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص عن خلقة الانسان وخلق له منقار صلب جاسي يتناول به طعمه فلا ينسحج من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم ولما عدم الاسنان وصار يزدرد الحب صحيحا واللحم غريضاً أعين بفضل حرارة

لقد تأكد علماً وثبت عقلا أن حكمة الصانع المبدع في خلقه لم تزل جارية في كل جزئي وكلي منها ، فلم يخلق عضو في مخلوق ألا لغاية مقصودة ، ولم تسلب منه جارحة ألا لعدم الحاجة اليها فترى مثلا اعضاء آكلة اللحوم ، غيرها في اكله النبات ، وهي غيرها في المشتركة بينهما في الغذاء ، فلو لم تحتج السباع للافتراس والنهش والتمزيق لما خلق لها الناب والمخلب ، ولو لم تتغذ البهائم وذوات الاربع بالنبات والعلف وهي عديمة اليد لما خلق لها اسنان على قدر حاجتها وجعل لها خرطوم وعنق طويل لالتقاطه وقضمه ، وهكذا خلقت أعضاء كل مخلوق على ما ينبغي له وما تقتضيه الحكمة . ولأجل ان تدرك مثل هذه الحكمة أراد الامام عليه السلام ان ينبه الغافل ويرشد العاقل الى التفكر في بديع الصنع للوصول إلى الصواب من إثبات الوحدانية ، فقال عليه السلام : ولما قدر الخ فالطير إذن كالانسان في أكل الحب واللحم

في الجوف تطحن له الطعام طحنا يستغني به عن المضغ فاعتبر ذلك بان مجم العنب وغيره يخرج من أجواف الانس صحيحا ويطحن في أجواف الطير ولا يرى له أثر .

لكن الانسان يمضغها ويطبخها باسنانه قبل دخولها إلى المعدة وعند ذلك تستطيع معدته ان تكمل هضمها . ولكن الطير لا اسنان له تعينه على الهضم فهو ينقص الانسان في ذلك فاقتضت الحكمة ان يعان بحرارة زائدة في جوفه ثابتة المقدار دائماً تتراوح درجتها بين (٤٠) إلى (٤١) حسب المحرار (ثرموتر) الخارجي ، وهي في الصغار اكثر من الكبار لضعفها عن الهضم ، وبهذه الحرارة استغنى الطير عن الاسنان لهضم غذائه بل لاذابة الحبوب الصلبة القوية أيضاً كحجم العنب الذي لا يذيبه جوف الانسان ولا يبقى له جوف الطير اثراً بالكلية .

ثم لما عدم الطير اليد لا لتقاط طعامه خلق له منقار صلب جاسي يابس لاينسحج أي لا يتقشر باللقط ولا يتقصف أي لا ينكسر بنهش اللحم . ويتركب المنقار من نسيج عضلي تعلوه طبقة رقيقة من الأدمة المزودة بالاوعية الدموية والاعصاب وتحافظها طبقة أخرى فوقها من البشرة المتقرنة ، وفي قاعدة المنقار جلد منتفخ يسمى (اللحمة) والمناقير في الطيور تختلف باختلاف انواع اغذيتها وطريقة الحصول عليها فمنها العريضة كمناقير البط ومنها القوية المدببة كمنقار مالك الحزين ومنها الطويلة الرقيقة كمنقار الطيطوى ومنها الضخمة المعقوفة كالببغاء وسائر جارحات الطير ومنها الصغيرة الرفيعة المدببة كمناقير آكلات الحشرات ومنها القصيرة الغليظة كما لآكلة الحبوب وهكذا فسبحان الصانع المبدع وتعالى عما زعم الجاهلون الملحدون علواً كبيراً

الطير يبيض ولا يلد

قال عليه السلام : ثم جعل مما يبيض بيضاً ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران ، فانه لو كانت الفراخ فى جوفه تمكث حتى تستحكم لا ثقلته وعاقته عن النهوض والطيران فجعل كل شيء من خلقه مشاكلا للامر الذي قدر أن يكون عليه ، ثم صار الطائر السائح فى هـذا

خلق الطير كما عرفت آنفاً خفيف الجسم مجوف العظام ذا ريش خفيف ناعم نابت فى قصبات مجوفة تسهيلا لطيرانه ونهوضه ولان يرتفع فيحمله الهواء لخفته .

ولهذه الغاية صار يبيض بيضاً ولا يلد ولادة ، ومع ذلك فقد خلقت البيضه الواحـدة فيه مهما كبرت صغيرة بالنسبة إلى جسمه ، خفيفة الوزن يحتملها جوفه ، فاذا كملت وكادت ان تثقل على الانثى باضتها وطرحتها فى الخارج ، وهناك تقعد عليها أي تحتضنها لمدة أسبوع او اسبوعين او ثلاثة أسابيع باختلاف الطيور والفصول والمحيط ، حتى إذا فقست وخرج الفرخ اقبلت الأنثى عليه تزقه الريح أولا قبل ان تطعمه بشيء وذلك لتتسع حوصلته فتحتمل الغذاء لأن الحوصلة تكون عند خروجه ضيقة ملتصقه الجدران ، فاذا انتفخت بالهواء الذي تزقه الأم وأتسعت امكن ادخال

الجو يقعد على بيضه فيحتضنه أسبوعاً وبعضها أسبوعين وبعضها ثلاثة أسابيع حتى يخرج الفرخ من البيضة ثم يقبل عليه فيزقه الريح لتتسع حوصلته للغذاء ثم يربيه ويغذيه بما يعيش به ، فمن كلفه أن يلقط الطعم والحب فيستخرجه بعد أن يستقر فى حوصلته ويغذو به فراخه ، ولاي معنى يحتمل هذه المشقة

الطعام اليها وعند ذلك تطعمه بمادة حليبية القوام وهي عبارة عن قسم من طعام الأم قد جرى عليه بعض التغيير فى حوصلتها حتى صار كالحليب وهكذا حتى إذا تقدم الفرخ فى العمر استعاضت الام عن هذه المادة بحبوب من غذائها مرطبة ملينة فى حوصلتها ايضاً ، فاذا ما كبر واستطاع الطيران أشترك معها فى التقاط الحبوب وغيرها فلو كانت الفراخ تتكون ويتم خلقها في جوف الانثى كساير الحيوانات لاثقلها الحمل وعاقها عن الطيران والنهوض وهـذا ما لا يتناسب وخلقة الطير الذي خلق ليطير ويطير ليعيش ويعيش ليتناسل ، وإنما أريد به ان يتناسل فلحكمة اقتضاها خالقه الحكيم .

وإن هذه الحكمة المقصودة هي التي جعلته لا يبيض الاّ بيضة واحدة وصغيرة وخفيفة الوزن تلائم خفة جسمه ، ثم جعلت البيضة تتكون في مبيض واحد وهو الايسر فقط ، أما المبيض الايمن فانه يضمر في أوائل حياة الانثى ، والسبب في عدم فعالية المبيض الايمن وضموره هو ان الطير مطلقاً حـذر يقظ يخاف من كل حيوان وانسان ويرى نجاته في فراره وسرعة جريه وطيرانه ، فاذا كان المبيضان كلاهما يحمـــل بيضة او بيضين احيـاناً ثقل عن الجرى والحركة والطيران . وأمكن صيده بكل سهوله ، وهـــذا أيضاً مما لا تقتضيه الحكمة الآلهية لذلك أمر الامام عليه السلام بالتفكر والتأمل في هذا الخلق البديع العظيم حيث قال عليه السلام ، فمن

وليس بذي روية ولا تفكر ولا يأمل في فراخه ما يأمل الانسان في ولده من العزو الرفاه وبقاء الذكر ، فهذا من فعله يشهد أنه معطوف على فراخه لعلة لا يعرفها ولا يفكر فيها وهو دوام النسل وبقاؤه لطفاً من الله تعالى ذكره.

كلف هذا الطير الخ أقول : انه ﷺ اراد لفت النظر من المفكرين والتأملين في مثل هذه الخلقة ليعتبروا بها ، وانه كيف اهتدى هذا الطير الذي لا عقل له ولا روية أن ينفخ أولا في حوصلة الفرخ لتتسع وكيف علم انها تضيق عن الغذاء ، ثم بعد ذلك كيف ادرك بانها قويت ولكنها لا تحتمل الخشن من الطعام فجعلت تتقمه في حوصلتها حتى يكون كالحليب قواماً لتزقه أياه ثم بعد ان يكبر قليلا صارت ترطب الحب في حوصلتها أيضاً ثم تزقه به وإذا قوى على الطيران تركته واصبح يلتقط معها كما تلتقط مستغنياً عنها تماماً ، فانظر لاي معنى ولاي قصد يحمل الطير هذه المشقة في التربية والتغذية دون ان يرجو نفعاً او ان يأمل مساعدة من فرخه إذا كبر و شاب كالانسان الذي يربي ولده آملا منه المساعدة والعون عند العجز والكبر او راجياً بقاء الذكر الجميل بعد موته . ومن هنا يعلم ان كلما يفعله الطير لم يكن عن أختيار وتعقل بل عن فطرة وغريزة اودعها فيه خالقه لعلة وحكمة لا يعرفها هو حين يعمل ما يعمل .

وبعد التأمل هل ترى هذا وأمثاله في الخلق يصدر هملا ودون قصد ؟ فاعتبر.

الدجاجـة

قال عليـه الـسلام : أنظر إلى الدجاجة كيف تعيج لحضن البيض والتفريخ ، وليس لهـا بيض مجتمع ولا وكر موطأ ، بل تنبعث وتنتفخ وتقوا وتمتنع من الطعام حتى يجمع لهـا البيض فتحضنه وتفرخ ، فلم كان

الدجاج فصيلة برأسها تشمل الدجاج الاعتيادي والهندي والامريكي والحجل والدراج والقبيج والسلوى والقطا والطواويس وأمثالها ، وكل هذه الاصناف تشترك في أنها ذات مناقير حادة متوسطة الحجم مقوسة قليلا وقوية ، ولها أجنحة قصيرة مستديرة قليلة القابلية على الطيران إلا البعض منها وأرجلها الكبيرة القوية ذات مخالب صغيرة مقوسة تستعملها لنبش التراب وغيره .

أما طعامها الغالب فهو الحبوب والثمار واحياناً اكل الحشرات والديدان .

ورغم كثرة اقسام هذه الفصيلة فان الذهن ينطلق عند ذكر الدجاج إلى الدجاج الاعتيادي الذي نذكره في بحثنا هذا فنقول :

أن الدجاج الاعتيادي أكثر اقسام هذه الفصيلة عندنا واشهرها في اطرافنا أي في الشرق الاوسط . وهو مشترك الطبيعة في الغذاء لانه يأكل اللحم والديدان والذباب ، وهذا من طباع السباع ، ويأكل الحبوب والثمار والخضر وهذا من طباع

ذلك منها ؛ إلا لاقامة النسل ، ومن أخذها باقامة النسل ولا روية لها ولا تفكير ، لولا أنها مجبولة على ذلك .

البهائم والطيور ، وقد عرف بقلةالنوم وسرعة الانتباه حتى قيل : ان نومه واستيقاظه بمقدار خروج نفسه ورجوعه ، وإنما تفعل الدجاجة ذلك خوفاً وجبناً ولذلك لاتنام إلا على مرتفع من الارض او غيرها كالرف والجدار والشجرة ويكون نومها على الارض قليلا واكثر نومها عند غروب الشمس وظلام الافق .

وهي من الحيوانات التي تبيض ولا تلد . وتبتدي بالقاء البيض عندما تبلغ الثانية إلى العشرة أشهر من عمرها ، وبيضها قد يبلغ في السنة الاولى من (١٠٠) إلى (١٣٠) بيضة ، يتناقص حتى يخرج البيض بلامح ثم ينقطع فلا تصلح ألا للذبح والاكل ، ولحمها من ألذ اللحوم واطعمه .

والبيضة يتم خلقها في الدجاجة لمدة عشرة أيام ، وتكون عند خروجها لينة القشرة فاذا اصابها الهواء جفت ويبست ، وهي تشتمل على مائين مختلفي اللون والقوام أحدهما اصفر ويسمى المح والثاني أبيض ويسمى البياض ، وبينهما قشرة رقيقة تسمى (قيصاً) وتعلوها ايضاً قشرة اخرى صلبه كلسية ، وهي التي تحفظها من السيلان وتمنعها من تلقي الهواء الخارجي .

فالبياض رطوبة مختلطة لزجه متشابهة الاجزاء وهي بمنزلة المني في الانسان ومنه يتكون الفرخ والصفار (الصفرة او المح) رطوبة سلسة ناعمه صفراء أشبه شيء في القوام بالدم الجامد ، وهو بمنزلة غذاء الطفل (الفرخ) يتغذى به داخل البيضة من سرته لان البياض إذا تكون منه الفرخ انحاز في غشاء كما ان المح ايضاً ينحاز في

غشاه آخر.

وربما وجد في البيضة محان يخرج منها بعد الاحتضان فرخان فكأن الخالق جعل لكل فرخ محاً بعد تكوينه من البياض . ويقال ان الفرخ وهو في البيضة يعرف بانه ذكر أم انثى وذلك بان تفحص البيضة فان كانت مستطيله محدودة الاطراف عرف ان فيها انثى ، وإن كانت مستديرة عريضة الاطراف عرف ان فيها ذكراً ، أما إذا خرج الفرخ واريد معرفة الذكر والانثى منه علق من منقاره فاذا تحرك كثيراً فهو ذكر وإن سكن فانثى .

والدجاج يدجن ويربى ليعود على صاحبه بالربح الوفير . وفي كثير من البلدان المتمدنة معامل للتفريخ الصناعي يوضع فيها البيض وبعد مدة معينة وحرارة محدودة يفقس البيض وتخرج الفراخ وتربى بصورة علمية صناعية فيكبر ويصبح قابلا للبيع والاكل

وفي معرض ذكر طباع الحيوان وغرائزه أراد الامام عليه السلام تنبيه المفضل وغيره إلى التفكر في حالات الدجاج الحيوان الاهلي الذي هو على الدوام بمرأى وسمع منا فذكر له غريزة من غرائزه التي لا تخفى على أحد وهي هياج الانثى للارخام (حضن البيض) والتفريخ ، فهي عند ذلك تنتفخ وتكثر الصياح وتمتنع عن الطعام ولا يقر لها قرار حتى يجمع لها البيض فتحتضنه وهناك تسكن عن الهياج .

فقال عليه السلام : فكر لم كان منها ذلك بهذه الشدة وهذا الحرص الشديد ؟ فانك لو تأملت لم تجد لذلك سبباً سوى اقامة النسل الذي لم تقصده هي لعدم تعقلها ذلك ، ولكن غريزة خلقت فيها لاقامة النسل ولغرض انتفاع الانسان بلحومها وبيضها غذاء ودواء ، وهي حكمة بالغة جلت عن المصادفه والاهمال فاعتبر .

البـيضة

قال ﷺ : أعتبر بخلق البيضة وما فيها من الملح الاصفر والماء الابيض الرقيق ، فبعضه ينشؤ منه الفرخ وبعضه ليغتذي به إلى أن تنقاب عنه البيضة وما في ذلك من التدبير، فانه لو كان نشؤ الفرخ في تلك القشرة المستحفظه

لذكر الطيور على الاغلب زوج من الخصي البيضويـــة في مؤخر اسفل بطنه ، تخرج من كل منهما قناة منوية تضيق في اولها وتتسع في نهايتها ليكون هذا المتسع حويصلة منوية ، تفرز منها المادة المنوية الى فجوة مشتركة بين القناتين ومن هذه الفجوة المشتركة في الذكر تقذف المادة المنوية الى الفجوة المشتركة في الانثى باحتكاكهما ومن فجوة الانثى تذهب المادة الى المبيض الايسر منها حيث تتكون البيضة ، فاذا تكونت خرجت من المبيض الى قناة المبيض حيث تضاف اليها مادة البومية يفرزها القسم الاوسط من القناة ، ثم يضاف اليها الغشاء والقشرة الكلسية من مؤخر قناة المبيض فتكون البيضة مركبة من ح وزلال وغشاء وقشرة .

فالح مادة مخينة صفراء تتوسطها نواة واحدة ويحتوي على مواد غذائية لتغذية الجنين ويحيط به غشاء رقيق يتكون من افراز غدد منتشرة في قناة المبيض ويتركب من الياف رقيقة جداً وهو طبقتان متماسكتان بحيث يصعب فصلهما

التي لامساغ لشيء اليها ، جعل معه في جوفها من الغذاء ما يكتفي به إلى وقت خروجه منها ، كمن يحبس في حبس حصين لايوصل إلى من فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفي به إلى وقت خروجه منه .

وتوجد في الجهة الواسعة من البيضة ردهة هوائية منها يسحب الجنين الهواء للتنفس ومنها تنفس لخروج الفرخ ، والزلال سائل ثخين ابيض متماسك الاجزاء تفرزه غدد انبوبية دقيقة منتشرة في باطن قناة البيوض الممتدة من المبيض الى الفتحة المشتركة ومنه يتكون ذخر غذائي للجنين لدى الحاجة مضافا الى انه يقوم مقام السائل المحيط بالجنين الانساني داخل المشيمة .

اما الغشاء فيتكون مما تفرزه الغدد الموجودة في موقع منخصر من قناة البيض يسمى (البرزخ) وفي هذا المحل اي البرزخ تأخذ البيضة شكلها النهائي . اما القشرة فهي الغلاف الخارجي والقشرة البيضاء الصلبة المشبعة بالمادة الكلسية المفرزة من غـــدد القسم الآخر من قناة المبيض وهي المحافظة لمجموع البيضة

هذه هي البيضة وهـــذا ما حوته من عجيب الخلقة وبديع الاتقان . فلا غرابة اذا ما امر الامام عليه السلام بالتفكير فيها وفي خلقتها وفيما حوت من نظام وتدبير وحكمة .

فهل بعد هذا يجد العاقل المنصف للمصادقة والاهمال مجالا اللهم الا مكابرة وعناداً والا عدولا عن طريق الحق والعقل والحس والوجدان .

حوصلة الطائر

قال عليه السلام : فكر يا مفضل فى حوصلة الطائر وما قدر له ،فان مسلك الطعم إلى القانصة ضيق لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلا قليلا ، فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الاولى إلى القانصة لطال عليه

لما كانت الطيور تفتات بالحبوب غالباً وهي تحتاج في هضمها الى الأسنان لتكسيرها وطحنها ليسهل طبخها في القانصة (المعدة) صار جزأ من الرى وهو مسلك الطعم متسعاً وموضعه قبل دخول الرى الى الصدر ، وهذا الجزء المتسع يدعى (الحوصلة) التى يبقى فيها الطعام المزدرد مدة بعد بلعه لينقع ويرطب ويلين بالماء واللعاب والسوائل المفرزة من غدد الحوصلة ،فاذا لان واستعد للهضم نفذ الى القانصة تدريجاً وعلى مهل ، وهناك بواسطة الحرارة الثابتة دائماً فى القانصة يتم هضمه ويستحيل دماً يسرى في العروق الى الاعضاء بالدورة الدموية في الطير اما القانصة فان جزءاً منها عضلي الجدار متكيف صلب لدى اكثر الطيور لاسيما آكلة الحبوب وذلك لهضم الطعام الصلب وفي هذا الجزء يتم سحق الحبوب وهضمها بعد الحوصلة ، كما تساعد الحصى التي يبتلعها الطير على الهضم ايضاً بصور غريزية دون ان يقصد الطير شيئاً عند ابتلاعها .

ومتى كان يستوفي طعمه فانما يختلسه أختلاساً لشدة الحذر ، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة امامه ليوعي فيها ما أدرك من الطعم بسرعة ، ثم تنفذه الى القانصة على مهل ، وفي الحوصلة ايضاً خلة أخرى ، فان من الطائر ما يحتاج الى ان يزق فراخه فيكون رده للطعم من قرب أسهل عليه .

وانما خلق المسلك بين الحوصلة والقانصة ضيقاً لان الطائر لما كان يلقط طعامه اختلاساً وبسرعة لحذره صار يجمع ما يلتقطه في الحوصلة التي هي كالمخلاة المعلقة امامه فاذا اجتمع وترطب نفذ الى القانصة تدريجاً ولو كان الطائر يصبر عن التقاط الحبة الثانية حتى تنزل الاولى لطال عليه الوقت مع شدة حذره وخوفه فلا يستوفي على هذا طعامه فمن اجل ذلك صار يجمعه بهذه السرعة في الحوصلة ثم ينفذه تدريجاً إلى القانصة، وشيء آخر وهو انه لما كان يزق فراخه غذاءها بمنقاره مما جمع في الحوصله كان أخراجه من الجوف إلى الفم اقرب واسهل .

وهذه هي الفائدة الثانية لجمع الطعام في الحوصله قد ذكرها الامام عليه السلام للمفضل ليفكر فيها هو ومن شاء ان يعتبر بالخلقة وهي غيض من فيض ونقطة من بحر حكم الخلقة فاعتبروا يا اولى الألباب .

إختلاف الألوان في الطيور

قال المفضل : فقلت يا مولاي أن قوماً من المعطلة يزعمون أن اختلاف الألوان والاشكال في الطير إنما يكون من قبل أمتزاج الاخلاط

وبعد أن ذكر الامام عليه السلام ما في خلقة الطيور من الابداع والحكمة وما اودع فيها من فطنة وذكاء فطريين . قال له المفضل : سيدي ان قوماً من المعطلة وهم الذين ينكرون صفات الباري تعالى من علم وحكمة وقدرة يزعمون ان هذه الالوان المختلفة والاشكال المتفاوته في الطيور ليست عن قصد في إيجادها ولا علم ولا حكمة بل ان الاخلاط التي في جسم الطير إذا اختلفت مقاديرها وامتزجت صار لها هذا اللون والشكل دون قصد من صانع معين بل بالمصادفه . فما ذا ترى يا سيدي إذ لم يكن هذا مما يقبله العقل ولا يستسيغه الوجدان ؟ فقال عليه السلام : عجيباً له يابسط الاجوبه : انظر يا مفضل إلى هذا الوشي والنقش الذي تراه في الطواويس والدراج مثلا إلى كونه متدرجاً في النظام والاتقان على استواء وتقابل في أطراف جسمها كأنه خط بالقلم مع عناية الفن الحاذق والرسام الماهر فكان بهذا النمط الرائع المنتظم في كل فرد من أفراد هذين الطائرين دون اختلاف أو شطط ، أهل تتصور فيه انه حدث بالمصادفة والمزج المهمل دون قصد من حكيم عالم قدير على انه جاء في كل فرد من

واختلاف مقاديرها بالمزج والاهمال . قال (ع) : يا مفضل هذا الوشي الذي تراه في الطواويس والدراج والتدارج على أستواء ومقابلة كنحو ما يخط

أفراد طيور هذا الصنف على شكل واحد دون اختلاف او تغيير ، او ليس هذا دليلا واضحاًعلى صدوره عن خالق قدير حكيم ؟ وهل للعقل هنا مجال ان يقر بالمصادفة ولا يسخف عقول هؤلاء الجهلة المعطلة الذين يزعمون مالا يفهمون .

وهنا ناسب ان نشرح على الاجمال ما هو اللون وكيف يتولد علمياً ؟ فنقول : ان علماء الطبيعة قد بحثوا كثيراً وجربوا اكثر حتى بلغوا إلى امور مسلمة لا محيص من الاعتراف بها لمعرفة ذلك وهي أولا ان اللون لايرى إلا بواسطة الضوء واشعاعه على ذي اللون وثانياً انه صفة عارضة على الاجسام الملونه وليس هو بجسم مستقل لأنه لا يوجد إلاّ بوجود معروض عليه وثالثاً ان للضوء تموجات تنتشر في الاثير ، ولكل من هذه الموجات طولا محدوداً وترددات (ذبذبات) خاصة ، وباختلاف اشعة هذا الضوء الساقط على الاجسام تختلف الالوان . بمعنى أن الاشعة تختلف الوانها تبعاً لاطوال أمواجها . فمثلا اللون الاحمر يبلغ طول موجته (٠،٠٠٠٠٧٦) من السانتيمتر وهي اطول الامواج الضوئية ، كما ان اطول موجة الاشعة البنفسجية تبلغ (٠،٠٠٠٠٠٢٨) من السانتيمتر وهي أقصر الامواج الضوئية . وبين الاحمر والبنفسجي عدد لايحصى من الموجات المختلفة في الطول والقصر ، ومن ذلك تتكون الالوان المختلفة .

وقال بعضهم : ان اللون يحصل في الاجسام من خلايا متفرغة فيها تتكدس فيها البلورات عاكسة للضوء بسبب مادة تسمى (جوانين) وهي من انتاج المواد الزلالية للهضومة التي يحملها الدم في هذه الخلايا . وعليه يقال ان هذه البلورات إذا كثرت

بالاقلام كيف يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف ، ولو كان بالاهمال لعدم الاستواء ولكان مختلفاً .

في الخلايا بيت الالوان وإذا تراكمت هذه الخلايا المختلفة الاصباغ بعضها على بعض نتج منها الوان متعددة ، على أن مادة (الجوانين) هي نفسها تستطيع ايضاً ان تحلل الضوء إلى الوانه الطبيعية ، وبذلك تبدو الاجسام عن بعد في الوان ساحرة خلابه .

هكذا تحدث الالوان في الاجسام الكثيفة الارضية من انسان وحيوان ونبات حسب أقوال أهل الفن من العلماء .

أما قوس قزح الذي يظهر في الافق في بعض أوقات الشتاء فتظهر فيه الالوان السبعة الرئيسية السماة (الوان الطيف الشمسي) . فان هذه الظاهرة الجوية لاترى إلا إذا كان في الجو سحابة مقابلة للشمس ، أما سبب ظهوره فهو ان الشمس بارسالها اشعتها إلى تلك السحابة التي تكون قد تحللت إلى قطرات ماء تدخل تلك الاشعة إلى باطن جزيئات ذلك الماء فتنكسر ، لان الشعاع إذا نفذ من جسم لطيف كالهواء إلى جسم كثيف كالماء او الزجاج انكسر ، وحينئذ يتحلل الضوء الشمسي إلى الوانه السبعة الاصلية التي هي : الاحمر والاخضر والاصفر والبرتقالي والازرق والنيلي والبنفسجي وعند ذلك يظهر قوس قزح ملوناً بهذه الالوان المشاهدة .

أما سبب حدوث هذه الالوان بعد ان لم تكن ، فهو ان الضوء الشمسي كما تقدم مركب من تلك الالوان السبعة المذكورة وباجتماعها في الاشعة الشمسية يكون لون الضوء هو المعتاد الذي تراه دائماً فاذا مر ضوء الشمس هذا في جزيئات الماء في السحاب انكسرت الاشعة وتفرقت الوانها فخرج كل لون مستقلا بلونه الطبيعي الحقيقي

. . . . . .

كما نشاهده في المنشور الزجاجي حينما تقابله بعين الشمس . هذا مجمل ما ذكروه عن الالوان .

أما الطاووس والدراج اللذين استشهد بهما الامام عليه السلام في ما فيهما من الوشى المنتظم والنقش البديع المستوى فيمكن ان يسند ذلك إلى وضع خلايا ريشها ومافيها من تلك المادة المذكورة علمياً وهي (الجوانين) على انه لم يحصل إلا لبديع الخلقة ووجود القصد فيها .

ولنشرح لك بعد هذا الطاووس والدراج تكميلا للفائدة . أما الطاووس فهو طائر من فصيلة الدجاج او البواحث ذوي المنقار المتوسط الطول والذي نصفه الامامي على شكل قوس مضغوط الاطراف ، جناحاه قصيران مستديران . والطول ريشة فيها هي الريشة السادسة ، وله عرف في رأسه مؤلف من (٢٤) ريشه خضراء ذهبية الحواشي من اطرافها ، اما جهة العين فعارية عن الريش ، وذنبه مؤلف من (١٨) ريشه طويله مستديرة الاطراف يغطيها الذنب الملون المعروف في الذكر دون الانثى اما قدماه فطويلان قويان وكل منهما مغطى من الامام بحراشف وفيه مهماز مخروطي وأصابع رجليه متوسطه الطول والامامية منها متصله عند اصولها بغشاء . وهو مشهور بحسن قوامه وجمال الوان ريشه ، وقد قال بعض الحكماء ، لو كان الملك للجمال دون القوة لكان الطاووس بلا شك سيد الطيور .

وهو يؤثر سكنى الغابات والغياض المنخفضة ، وقد يطير ولكنه ثقيل الطيران واحياناً يتخذ من اعالي الاغصان موقعاً له ، ويبنى عشه على الارض ضمن ما احتبك من اغصان الانجم والنبات ويتم نموه في السنة الثالثة من عمره ، وقد

عرف عن الذكر منه انه يتخذ زوجات متعددة اما انثاه فانها تبيض في السنة من (١٢) الى (٢٠) بيضة بحجم بيض الاوز وتكون البيضة ملونة وقلما تكون بيضاء ثم ان الانثي اقل جمالا من الذكر وتكون صمراء اللون قائمته وليس لها ذيل كذيل ذكرها .

والطاووس معجب بنفسه كانه يدرك جماله وفي المثل فلان يرى نفسه كالطاووس اذا اعجب بنفسه وتكبر .

اما الدراج فهو طائر جميل شبيه بالحجل ارقط بسواد وبياض او اقتط ، متوسط المنقار يقتات على الحبوب والاثمار والديدان والحشرات ، له اجنحه قصيرة مستديرة ضعيف الطيران ، ذو ارجل كبيرة قوية ومخالب كثيرة التقوس ، وله ذنب طويل مبتور ، وهو كثير الريش ، واغلب سكناه في الغابات والجبال المخضرة ، ويعيش على شكل جماعات كثيرة العدد ولكنه عند السفاد والازدواج يختفي وينعزل عن اصحابه .

وللدراج انواع كثيرة لا محل لتفصيلها هنا نظراً لاختصار الرساله وخوفاً من الخروج عن الموضوع ومن أراد التفصيل فليراجع الكتب المفصله من معاجم الحيوانات.

ريش الطائر

قال عليه السلام : تأمل ريش الطير كيف هو ، فانك تراه منسوجاً كنسيج الثوب من سلوك رقاق قد الف بعضه إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط والشعرة إلى الشعرة ، ثم ترى ذلك النسيج إذا مددته ينفتح قليلا ولا ينشق ليداخله الريح فيقل الطائر إذا طار ، وترى في وسط الريشة

الريش عبارة عن قصبة محورية الشكل صلبة القسم الأسفل المجوف منها والمسمى (قصبة) وممتلئة القسم الاعلى المسمى (القلم) وعلى جانبي القلم يوجد (النصل) وهو القسم المسطح من الريشة وهذا النصل مؤلف من خيوط رقيقة رفيعة جداً متلاصقة مع بعضها بحيث تراها كانها صفحة واحدة ، ثم ان هذه الخيوط تحمل ايضاً فى تركيبها خيوطاً اخرى رقيقة جداً وفى اغلب الريش لا سيما ريش الذنب ، ويكون لهذه الخيوط شويكات ذات نهايات معقوفة ترتبط مع بعضها لتجعل من النصل صفيحة متماسكة وهناك على الجلد ريش ناعم ليس له تلك الخيوط يسمى (زغباً) .

وينقسم ريش الطير الى (قوادم) وهي النابتة على عظم الكتف طويلة قوية النصل ، ويكون طرفها القريب من الجلد اوسع من الطرف البعيد عنه ، والى

عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته وهو القصبة التي في وسط الريشة وهو مع ذلك اجوف ليخف على الطائر ولا يعوقه عن الطيران .

(خوافي) وهي النابتة على الساعد ، وهذه اقصر واضعف نصلا من القوادم والى (ثوالث) وهي النابتة على عظام العضد ، وهذه ايضاً اقصر واضعف نصلا من سابقتيها ، وبهذا التركيب الذي ذكرناه تراه منسوجاً نسج الثوب من اسلاك قوية رقيقة نسجت مع بعضها ، ولكنه مع تماسكه وتأليفه اذا مددته تجده ينفتح قليلا اي يتسع دون ان تنفصل خيوطه عن بعضها فينشق . وقد خلق هكذا ليتداخل الهواء فيه فيعين الطائر على طيرانه . وهذا الريش مضافاً الى نفعه للطيران فانه يحافظ على حرارة بدن الطير ، وذلك لان الريش غير موصل للحرارة الخارجية ، كما انه يساعد على وقايته من الصدمات التي ترد عليه من الخارج ، وله منفعة اخرى وهو انه يكون غالباً غير قابل للابتلال في الماء ، وذلك لوجود غدة في الجهة الظهرية من الذنب تفرز سائلا زيتياً على الريش يمنع من قبول قطرات الماء عليه ، والطير هو ايضاً يستعمل منقاره لطلي الريش بذلك الزيت لهذا الغرض .

فانظر وتعقل وفكر وتأمل هل يمكن لمخلوق ان يعمل مثل هذا ، وهل ترى للمصادفة ان تحدث هذا الابداع ثم اليس هذا وامثاله في الحيوان وغيره دلائل واضحة وشواهد ناطقة بوجود صانع عليم حكيم ؟ .

الطائر طويل الساقين

قال عليه السلام : هل رأيت يا مفضل هذا الطائر الطويل الساقين وعرفت ماله من المنفعة في طول ساقيه، فانه أكثر ذلك في ضحضاح من الماء ، فتراه بساقين طويلين كأنه ربيئة فوق مرقب وهو يتأمل ما يدب في الماء فاذا رأى شيئاً مما يقوت به خطا خطوات رقيقاً حتى يتناوله . ولو كان

قاتل الله الجهل ما اقبحه ، ولا سامح الله العناد ما اصلفه ، فهما خلتان ما اتصف بهما او باحدهما انسان الا وخرج عن الانسانية الى الحيوانية وهوى في هوة الهمجية .

أترى لو كان المعاند عقل سليم يدرك به الحقائق ولم يصحبه تعنت يغير الواقع ويزل به قدم صاحبه عن واضح الطريق ، اكان ينسب هذه البداعة في الخلقة وهذه الحكمة في الصنعة الى غير صانعها ، ام كان يوعز هذا النظام والاتقان الذين لا يمكن ان يصدرا الا عن علم وقدرة الى شيء لا عقل له ولا ادراك ولا قصد مثل الدهر او الطبيعة او المادة وامثالها ؟ .

تأمل في هذا العالم وفكر في ملكوت السماء والارض واعتبر بما حويا مما ينحل الالباب ثم انصف وقل هل يمكن صدور مثل هذا بالمصادفة ام هل يتخيل

قصير الساقين وكان يخطو نحو الصيد ليأخذه ، يصيب بطنه الماء فيثور ، ويذعر منه فيتفرق عنه ، فخلق له ذانك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه طلبه . تأمل ضروب التدبير في خلق الطائر فانك تجد كل طويل الساقين

ان يخلق ذلك من لا يدرك النظام والابداع ؟ اللهم حاشا للعقول أن تقبل ذلك

فكم مرت عليك في هذه الرسالة من عبر وشواهد في خلق الحيوان لو فكرت فيها ملياً لسخفت عقول الجاحدين ان كانت لهم عقول . ولا ستدللت بما اودع فيها من الآيات الباهرات وما اشتملت عليه من البراهين والدلائل على توحيد الصانع بنظام المصنوع ، ثم لوجدت ان كل حيوان من الحيوانات بل كل حي من الاحياء لم يخلق الا ملائماً لمحيطه الذي يعيش فيه ولنوع حياته وطريقة معاشه : فمثلا حيوانات المناطق الشمالية خلقت لتعيش هناك وتقتات بما خلق لها في تلك المناطق الباردة فلو انتقلت مثلا الى المناطق الجنوبية لماتت حيث لم تخلق لمثل هذا المحيط المغاير لحياتها وخلقتها ، ومثلها حيوانات المناطق الجنوبية اذا انتقلت الى الشمال فانها لا تبقى حية اذ لا تستطيع الحياة فيها .

كما ان حيوانات المناطق الحارة الاستوائية غيرها في المناطق المعتدلة ، وهذا التغيير في حياة كل حي وحتى الانسان يسري الى اعضائها في الوضع والشكل حسب ما يلائم قوتها في تلك المناطق فقد خلق كل شيء منها على ما ينبغي للمحيط والهواء والمناخ وساير مناحي الحياة .

ومثل ذلك حيوانات البحر فانها ايضاً كثيرة الانواع والاشكال مختلفة الاقوات والطعام متفاوتة اشكال الاعضاء وذلك لاختلاف مواضعها من البحر

طويل العنق ، ذلك ليتمكن من تناول طعمه من الارض ، ولو كان طويل الساقين قصير العنق لما أستطاع أن يتناول شيئاً من الارض وربما أعين مع

شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً وفي سائر مناطق البحار المختلفة . وفوق ذلك نرى اعضاء آكلة اللحوم مثلا غير اعضاء آكلة الحبوب والنباتات وهي غيرها في الحيوانات المشتركة الاكل في اللحم والنبات .

وهنا اذا نظرت الى الطائر طويل الساقين كما ذكره الامام ﷺ على سبيل المثال وجدت ان هذا الطائر لما كان يعيش غالباً في ضحضاح من الماء وكان قوته مما يجده في ذلك الضحضاح من دواب وحيوانات صغار ، كان من الحكمة ان تطول ساقاه بالضرورة اذ لو كان ساقاه قصيرين ثم اراد ان يصطاد فريسته من ذلك الضحضاح القريب القعر لاصاب بطنه الماء فحركه وثوره ، وبهذه الحركة واضطراب الماء لابد وان تحس وتدرك تلك الدواب التي طالب صيدها فتفزع وتهرب وتتفرق عن محلها فلا يحصل الطائر بذلك على قوته واذا دامت معه هذه الحال عدم القوت واذا عدم قوته مات دون ان ينال رزقه .

وهذا مما لاتقتضيه الحكمة . ولذلك خلق ذا ساقين طويلين كالعمودين يقلان جسمه ليكون بدنه وعيناه فوق هذا المرتفع كعين طليعة الجيش المراقبة فوق المرقب ليرى صيده من اعلى ويمشي اليه الهوينى ويخطو خطوات رقيقة دون ان يذعر منه ذلك الصيد حتى يصل اليه ويمسكه فيتقوت به .

وبديهي انه لولا طول ساقيه لما استطاع الوصول الى بغيته ولهربت منه فريسته .

طول العنق بطول المناقير ليزداد الامر عليه سهولة وإمكاناً، أفلا ترى إنك لا تفتش شيئاً من الخلقة إلا وجدته على غاية الصواب والحكمة .

وهنا نقطة مهمة اخرى يجب لفت النظر اليها والتأمل فيها لمعرفة مواضع الحكمة في الخلقة وهي : ان هذا الطائر الطويل الساقين لم يكن ليستفيد من طول ساقيه ولم يستطع النيل من صيده مالم يطل عنقه ايضاً ليتمكن من تناول طعمه من الضحضاح او من الارض فلو كان عنقه قصيراً مع طول ساقيه لاحوجه ذلك عند ارادة الصيد ان يثني ساقيه ليصل الى الفريسة فيحصل له مثل ما كان يحصل له عندما تكون ساقاه قصيرين ، فتنتفي الفائدة المقصودة من طولها . ثم اعانه الله تعالى علاوة على طول العنق بطول المنقار ليزداد عليه الامر سهولة وامكانا .

والآن وبعد اطلاعك على هذا الطائر وأضرابه الكثيرة ثم تأملت في خلقته وعرفت الحكمة في جعل أعضائه على هذا الشكل ، فهل تشك في ان كل ما وجد في الخلقة كان على ما ينبغي وانه لاينبغي غيره البته ، وهل تستطيع أن تقول كما يقول الجهلة الجاحدون ان العالم خلق دون خالق وصنع من غير صانع .

سبحانك ما خلقت هذا باطلا .

العصفور

قال عليه السلام : أنظر إلى العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار ، فهي لا تفقده ولا تجده مجموعاً معداً بل تناله بالحركة والطلب وكذلك الخلق كله ، فسبحان من قدر الرزق كيف فرقه ، فلم يجعله مما لا يقدر عليه ، إذ جعل

العصفور من بهائم الطير وليس من سباعها إذ لم يكن له مئسر ولا ناب ، وإن كان فيه من أخلاق السباع صيد الجراد والنمل الطيار واكله اللحم وحتى انه يلقم فرخه اللحم ايضاً ، ويتميز عن انثاه ان له مثل اللحية وليس لها مثلها ومن طباعه وحالاته انه كثير السفاد ، كثير العطف والحنو على فراخه أكثر مما في الطيور الاخرى .

ومن المعروف ان للحية حب شديد في اكله واكل فراخه وبيضه ، فاذا رأى الحية مقبلة صاح ورفرف في وجهها فلا يسمع صوته عصفور إلا واقبل اليه وصنع مثل صنعه بحرقة ولوعة وصراخ وكلهن يرفرفن فوق رأس الحية ، وربما افلت الفرخ وسقط إلى الارض وقد ذهبت الحية فيجتمعن حوله إذا كان قد نبت ريشه فلا يزلن يهيجنه ويطرن من اطرافه ، كأنما هذا العمل يحدث فيه قوة ونشاطاً على النهوض ، فاذا نهض وطار طرن حواليه ودونه حتى يوصلنه إلى العش فاذا استقر فيه

بالخلق حاجة اليه ، ولم يجعله مبذولا ينال بالهوينى إذ كان الاصلاح فى ذلك ، فانه لو كان يوجد مجموعا ممداً كانت البهائم تنقلب عليه ولا تنقلع

رجعن إلى اعشاشهن.

وقيل ان العصفور قد يحتال لقتل الحية ، كما حكي أن عصفوراً رؤى انه طار مذهولا عندما رأى حية مقبلة على فراخه فالتقط شيئاً من الارض وجاء يرفرف فوق رأس الحية ، وعندما فتحت فاها لتلتقمه القى ذلك الشيء فى فمها فجعلت الحية تلوكه ولا تستطيع إخراجه ولا بلعه ، وهكذا بقيت حتى سقطت ميتة ولما فتش عما القاه العصفور في فمها عرف انه (حسكة) وقد مزقت حنجرتها بابرها فماتت . والعصفور على ما قيل لا يبقى اكثر من سنة لكثرة سفاده ، وله من صدق الحس وشدة الحذر والفطنة ما ليس لغيره من الطيور على ان الطيور عموماً اذكي الفقريات حيث ان دماغها معقد نسبياً ، ولكنها اوطأ ذكاء من اللبأن لان دماغها صغير وتلافيفه قليلة غير انها ذات عواطف تتجلى في كثير من أحوالها ، وقد خص كل حيوان أي كل صنف من الطيور بصفة خاصة دون غيره ، فالديك معروف بالشجاعة وميله للعراك والدجاجة مشهورة بالعطف على فراخها ، والحمام بحبه لزوجته ، وترى الميل الجنسي ايضاً قد يكون شديداً لدى بعض الطيور حيث تكون الالوان زاهية والاصوات شجية . ومن خصائص الطيور بناء اعشاشها حسب طريقة سكناها وموافقة تعريشها ومن خصائص الهجرة لدى بعضها إلى الاماكن التي ترى العيش فيها أهنأ والمناخ أوفق ، وقد تهاجر لحفظ افراخها من الحر والبرد او الحيوانات المفترسة او لحفظ بيضها من السرقة .

عنه حتى تبشم فتهلك ، وكان الناس ايضا يصيرون بالفراغ إلى غاية الاشر والبطر حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش .

أن كل هذه الاعمال الفطرية لدى الطيور لهي مثال واضح ودليل جلي على ذكائها الفطري وما أودع فيها صانعها من الغرائز لحفظ حياتها .

أما العصفور فمن ذكائه انه يهتدي إلى محله مهما طار متعالياً إلى الاعلى او إلى البعيد من الامكنة شرقا وغربا ومن مختصاته حدة الصوت والصعو أي انه لايمشي مشياً بل يقفز قفزاً وذلك بان يجمع يديه ثم يثب ، وهكذا في جميع حركاته من ذهاب وإياب .

هـــذا هو العصفور على وجه الاجمال . وقد اشار الامام عليه السلام إلى بعض حالاته للاعتبار والتفكير فيه وليرى العاقل ان في كل شيء آية وفي كل خلقة دليل على تفرد الصانع ووحدانيته فيما يبدع ويحكم ، فقال عليه السلام : انظر إلى العصافير كيف تطلب اكلها بالنهار الخ فانه يسعى مجداً مسرعاً يلقط الحبة اثر الحبة غذاء او اللحم وبعض الحشرات طعاماً من هنا وهناك حيث لم يجد ذلك مجموعاً في محل واحد بل متفرقاً ، ولولا حركته السريعة وتنقد طعامه من أماكن متفرقة لما حصل على غذائه بسهولة ، وفي هـذا من الحكمة ما لا يدركه إلا المتفكرون الذين ينظرون بعين التعقل والبصيرة .

ولا يخفى ان العمل مطلقاً سنة طبيعية وهو شرط من شروط الحياة لكل ذي روح نام متحرك ، لان الله تعالى لما خلق قدر لها أقواتها وضمن لها ارزاقها ، وقد اقتضت حكمته ان تكون تلك الارزاق متفرقة منتشرة في أطراف المعمورة

وانحاء البلاد ، ولكنه تعالى لم يجعلها عسرة المنال ، غير مستطاع الحصول عليها ، بل جعلها تنال لكن بالحركة اليها والتوجـــه نحو طلبها ، مع جعل الحاجة اليها وضرورة تحصيلها وما ذلك الا لصالح الخلق وتنظيم حياتهم الخاصة والعامة ، ومعنى ذلك انه لو كان القوت يوجد مجموعاً معـداً مهيأ لا يحتاج إلى سعى وطلب وحركة لكانت البهـائم مثلا التي لاهم لهـــا إلا علفها تنقلب عليه اكلا ، ثم لاتنقلع عنه حتى تبشم وتتخم ، وبذلك تهلك وتموت ، هذا فى الحيوان أما الانسان فانه لو كان يجد الغذاء والقوت حاضراً معداً غير محتاج فى تحصيله إلى حركة وعمل لعم جميع أفراده الفراغ وشملتهم الدعة ، ولصرف جل اوقاته التي كان يحتاجها فى طلب الرزق إلى اشباع شهواته الدنيئة وميوله وعواطفه الحيوانية ، وهـذا بالطبع يؤدي إلى البطر والاشر ويحدث كثرة الفساد فى المجتمعات بل وفى الارض جميعها من فسق وفجور وظلم وجور وفوضى بل وجميع الفواحش .

الطيور الليلية

قال عليه السلام : أعلمت ما طعم هذه الاصناف من الطير التي لا تخرج إلا بالليل ، كمثل البوم والهام والخفاش قلت لا يا سيدي . قال ﷺ إن معاشها من ضروب منتشرة فى الجو من البعوض والفراش وأشباه الجراد

لقد جرت سنة الله فى خلقه ـ ولا تبديل لسنته ـ أن جعل الليل سباتا وراحة والنهار معاشاً وعملا لكل حي متحرك ، بهدأ ليلا فيسبت ويخرج نهاراً ليسعى ويعمل ليعيش . وقد شاء مع ذلك ان يجعل قسماً من مخلوقاته يسبت نهاره فينام ويخرج ليلا لتحصيل قوته ، وذلك لحكمة هو اقتضاها . كمثل البوم والهام والخفاش وأضرابها ، فلو تأملت فى طباع هذا الصنف من الحيوان ونوع معاشه لادركت أن الصلاح فى عدم خروجه نهاراً ، فمثلا هذا البوم الطائر الليلي المعروف له من الطباع أن يسطو على كل طائر وهو فى وكره فيخرجه فسراً ويأكل فراخه وبيضه ، وله من القوة والسلطة على الطير مالا يقوى الطير على أحتمالها . لذلك فالطير يتوقاه بظلمة الليل ، أما نهاراً فان قوته تفتر فاذا صادفه الطير وهو يدرك ضعفه فى النهار ، هجم عليه ونتف ريشه وربما قتله ، وذلك للعداوة التي بينهما . وقيل أن البوم لاتخرج نهاراً أما خوفا من الطيور العدوة لها او لأنها تتصور نفسها أجمل الحيوانات فهي

والبعاسيب ، وذلك أن هذه الضروب منتشرة في الجو لايخلو منها موضع وأعتبر ذلك بانك إذا وضعت سراجاً بالليل في سطح أو عرصة دار أجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير ، فمن اين يأتي ذلك كله إلا من القرب . فان

تخشى ان تصاب بالعين (وهـذا هو قول الجاحظ) . وقيل ان الله تعالى جعلها تحب الخلوة والتفرد فى مكنها رقاية للطيور من فتكها . والناس يتشأمون من سماع صوتها فى السماء ويزعمون إنها شر الطيور حتى قيل ان كسرى الملك قال لعامل له : صدلي شر الطيور واشوه فى شر الوقود واطعمه شر الناس . فصاد له بوماً وشواها فى حطب الدفلى واطعمها النام .

أما الهام وجمعها هوام فتطلق على حشرات الارض مطلقاً . وقيل هو اسم للحيات والعقارب وأمثالها . وقيل هي كل حيوان يهمّ بالاذى لغيره . وعلى كل حال فان أمثال هذه الهوام كان من الصالح سباتها نهاراً لكيلا تعيق الناس والحيوان عن أعمالها وطلب قوتها . ولأجل تحصيل قوتها اقتضي خروجها ليلا عندما يكون الانسان والحيوان فى مكنه متوقياً من أذاها . أما الخفاش فسنفصله فى الفصل الآتي .

ولما كانت هذه الطيور الليلية لاتخرج لطلب قوتها إلا ليـلا وهو وقت لم يجعله الله تعالى للعمل بل للسبات والراحة فقد هيأ لها ما تعتاش به ولم يحرمها رزقها بعد ان تكفل به .

وهذا المعنى هو الذي أراد الامام عليه السلام أن ينبه عليه المفضل وغيره ، من ان الخالق الرازق تعالى لم يخلق خلقاً إلا وقد جعل له رزقاً ، ولم يجعل له رزقاً إلا وهيأه له عند طلبه ، وكذلك فقد خلق هذا الصنف من الحيوان وجعل له رزقاً من

قال قائل إنه يأتي من الصحاري والبراري ، قيل له كيف يوافي تلك الساعة من موضع بعيد ، وكيف يبصر من ذلك البعد سراجا في دار محفوفة بالدور فيقصد اليه ، مع إن هذه عيانا تتهافت على السراج من قرب ، فيدل ذلك

ضروب الحيوانات الصغار كالبعوض والفراش وشباه الجراد واليعاسيب ثم جعلها كثيرة ومنتشرة في الجو لا يخلو منها موضع ، فهو يصطادها في حال طيرانه يلتقمها وهو فاتح فاه، أما دليل وجودها في الفضاء مع انك لم ترها بعينك ، فأنك إذا وضعت سراجاً في عرصة دار أو سطح ليلا ترى الكثير من هذه الضروب تجتمع عليه بسرعة مما يدل على وجودها بالقرب منه وإلا لما أمكن اجتماعها عليه بهذه الكثرة وهذه السرعة ، فان قال قائل إنها تأتي من الصحاري والبراري ، قلنا له كيف يوافي في تلك الساعة وهذه السرعة مثل ذلك ، ثم كيف يبصر ضوء السراج وقد حف بالدور والجدران حتى يقصده ويتهافت عليه ، وهذه الحشرات لم تكن تخلق لتكون طعمة لامثال هذه الطيور فقط بل لها منافع اخر قد لا ندركها عقولنا المحدودة التي لا تؤمن إلا بالمحسوس على الاغلب .

فهذه البعوضة مثلا وهي أضعف خلق الله تعالى لتقهر الجبابرة وتقلق راحة الملوك ذوي السلطان ليعتبروا وليتعظ من حاد عن الطريق فيرجع عن غيه وجبروته قال تعالى في ضعف البعوض وإنه عبرة المؤمنين وحجة على الكافرين (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) . ولابد إنك سمعت عن نمرود لما ادعى الربوبية بجبروته كيف أرسل الله البعوض في عسكره فابادهم حتى

على إنها منتشرة في كل موضع من الجو . فهذه الاصناف من الطير تلتمسها إذا خرجت فتتقوت بها فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطيور التي لا تخرج

هرب هو وأنفرد في بيته واغلق عليه الباب خوفاً ، ولكن بعوضة صغيرة ذات جناح واحد دخلت انفه وصعدت إلى دماغه فعذب بها أربعين يوماً حتى كان يضرب برأسه الارض ليستريح هنيئة ، ثم سقطت منه وهي كالفرخ ثم هلك ، وهذا الفراش الذي يتهافت على النار والسراج حتى يحترق وهو غافل جاهل قد خلق عظة للمنكب على المعاصي المتهافت على نار الفحش والاجرام وهو غافل جاهل لم يزل يرمي بنفسه في الخطايا والذنوب حتى يهلك ابدياً ، وهذه اليعاسيب وأشباه الجراد فان لكل منها منافع وحكم في خلقها نذكر في معاجم الحيوان المفصلة .

والآن لا بأس بذكر مجمل من حياة هذه الحشرات اتماماً للفائدة . فالبعوض حشرة من ذوات الاجنحة الثنائية ولها انواع اهمها (الانوفلس) ناقلة جراثيم الملاريا و (أستيكونيا) ناقله ميكروب الحمى الحراء و (الكيرفكس) ناقلة ملاريا الطيور ، والبعوض مطلقاً عينان في رأسها وريشتان طويلتان من اللوامس وهما في الذكور أطول منهما في الاناث ، ولها خرطوم كخرطوم الفيل تستعمله للثقب والامتصاص يشبه الابرة المجوفة ، ويتركب من سبع قطع ستة رقيقة جداً ومدببة الطرف وهي بمنزلة الشفة العليا واللسان ، ولها فكان علويان وفكان سفليان ومجموعها انبوب واحد يمتد ويضم للحاجة ، أما الشفة السفلى فهي سميكة ويبرز من الفكين السفليين محسان صغيران موازيان للخرطوم يظن إنهما للشم ، ولها صدر كبير وارجل طويلة رقيقه وأجنحة ضعيفة شفافة ، وانثاها شرهة جشعة في اللسع والمص ، لان الدم يفيدها في

إلا بالليل من هذه الضروب المنتشرة في الجو ، وأعرف ذلك المعنى فى خلق هذه الضروب المنتشرة التي عسى أن يظن الظان إنها فضل لا معنى له .

تكوين البيض ، والذكور قد تعيش على رحيق الازهار ، والانثى تبيض عامه على الماء ، فتصير البيوض ديداناً (سرفات) بمدة (٢٤) ساعة و بيضها قد يبلغ (٢٠٠) بيضة ، وهو يكثر في المواسم الحاره الرطبة ، وهي تلسع بخرطومها فتحدث الحكة لافرازه سائلاضاراً تحت الجلد ، ولا يقي منها إلا (الكلل) ورائحة القرنفل ، اما دواء الحكة فدهن الموضع بالأمانياك .

أما الفراش فهو حشرة كالبعوض تطير مجموعة بكثرة وتتهافت على السراج لضعف بصرها فهي تطلب ضوء النهار ، فاذا رأت السراج حسبته كوة في الظلام الى الموضع المضيء فرمت بنفسها عليه ، فان جاوزته ظنت انها لم تصب الكوه فتعود مرة أخرى وهكذا حتى تحترق . وهي كثيرة العدد في الفضاء بدليل قوله تعالى (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) .

أما اليعاسيب فهي جمع يعسوب وهو اسم مشترك يقع على ملك النحل وعلى كبار الذباب واخيراً يقع على حشرة ليليةمثل الجراد لها أربعة اجنحة ولا تقبض لها جناحاً ، ولم تر انها تمشي على الارض بل انما ترى في الغالب واقفة على رأس عود او طائرة في الجو ، وهي اطول من الجراد خضراء اللون .

والخلاصة أن هذه الضروب من الحشرات وامثالها تكون قوتاً للطيور الليليه كما ذكرناه وقد أراد الامام عليه السلام بذكرها ان تكون من جملة العبر التي يجب على المتأمل ان يفكر فيها ويعتبر بها ليرى كيف وجه الله تعالى الرزق لهذه الطيور التي

لانستطيع ان نخرج نهاراً ونخرج في وقت لم يوجد ما تقتات به الحيوانات الاخر مطلقاً من طيور وغيرها فهيأ لها هذه الحشرات وجعلها منتشرة في الفضاء تلتقمها دون تعب او تفتيش عنها بالنور او الضياء .

فانظر الى غرائب الخلقة وعجائب الصنع وكلها صلاح واصلاح لهذا العالم ومافيه

الخفاش

قال عليه السلام : خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع وهو لذوات الأربع أقرب ، وذلك إنه ذو أذنين ناشزتين ولسان ووبر ، وهو يلد ولاداً ويرضع ويبول، ويمشي إذا مشى على أربع ، وكل هذا

لم يزل الامام عليه السلام يملي على المفضل من بدائع الخلقة وعظيم قدرة الصانع في خلقه (وكل خلقه عظيم) ليفكر ويعتبر ويتأمل فيوحد ، وهنا أشار إلى احدها وهو الخفاش فقال عليه السلام : خلق الخفاش خلقة عجيبة الخ وذلك إنه إذا تأملته وجدته طائراً مجنحا ومن الطيأن الوحيدة التي تستطيع الطيران ، وهو لا يبصر في نور القمر ولا ضوء الشمس لأنه ضعيف البصر قليل شعاع العين ، ولكنه قوي حاسة السمع واللمس ، وهذه الحاسة الأخيرة تكون في حافات أجنحته لذلك تراه إذا طار في ظلمة الليل لا يصدم بشيء ، فهو يتنحى الموانع وإن صغرت . وقد ظن بعض علماء الحيوان إن له حاسة سادسة لشدة إدراكه الموانع الصغيرة الخفية على غيره . وقيل إن حاسة الشم عنده قويه جداً بحيث تعيض عن البصر . وهو يخرج ليلا عند غروب الشمس إذ هو وقت ابتداء الظلام وهيجان البعوض والذباب والفراش والحشرات التي تقتات بها ، فكأنه يخرج طالب رزق إلى طالبة رزق .

خلاف صفة الطير ، ثم هو أيضاً مما يخرج بالليل ، ويتقوت بما يسري في الجو من الفراش وما أشبهه ، وقد قال قائلون انه لا طعم للخفاش وإن غذاءه من النسيم وحده ، وذلك يبطل ويفسد من جهتين ، أحدهما خروج الشمل

ثم إذا تأملته مرة اخرى وجدته ليس من الطيور لان له أذنين ناشزتين وأسنان وخصيتين ولا ريش له وهو يمشي على أربع ، وهذا هو الذي يجعله خلقاً عجيباً كما قال الامام عليه السلام . وقد وصفه الامام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة بقوله : (هذه الخفافيش يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل شيء ، عشيت أعينها من ان تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها ، فهي مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها ، فاذا القت الشمس قناعها ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها أطبقت الاجفان من مآقيها وتبلغت ما اكتسبت من فيء ظلمة لياليها ، فسبحان من جعل لها الليل نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً ، وجعل لها من لحمها أجنحة تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان ، تطير وولدها لاصق بها يقع إذا وقفت ويرتفع اذا أرتفعت لا يفارقها حتى تحمله للنهوض جناحه ويعرف مذاهب عيشه (انتهى).

وقيل إن هذا الحيوان العجيب سريع الطيران والتقلب يقتات بالبعوض والفراش والذباب وبعض الفواكه طويل العمر بل قيل إنه اطول عمراً من النسر . أما انثاه فتلد من (٣) إلى (٧) أفراخ ، وكثيراً ما يسفد الخفاش وهو طائر في الهواء وليس في الحيوان من يحمل ولده غيره وغير القرد والانسان ، وربما

والبول منه فان هذا لا يكون من غير طعم ، والاخرى لانه ذو أسنان ، ولو كان لا يطعم شيئاً لم يكن للاسنان فيه معنى ، وليس في الخلقة شيء لامعنى له . وأما المآرب فيه فمعروفة حتى أن زبله يدخل في بعض الاعمال ، ومن

ولدت الاتي ولدها وهي طائرة .

أما تركيبه الجسمي فكفه متكيف بشكل جناح واسع جداً لاستطالة عظامه وتباعدها عن بعضها ، وقد ربطت أصابع الكف بغشاء جلدي سميك يمتد الى الاطراف الخلفيه حتى يحيط بالذنب القصير الذي يسند الغشاء بين الفخذين ويعين على الطيران أما رجلاه فيتجه مفصل ركبتيها الى الوراء عكس بقية اللبائن ، وفي أطراف اصابعه الخمسة مخالب مقوسة تستعين بها على تسلق الاغصان والسقوف للراحة مدلية رأسها الى الاسفل ، وهي تزحف على الارض باستعانة جناحيها وقدميها ولا تمشي لا ساحلة أرجلها بالغشاء . وأفواهها كبيرة واسعه ليسهل عليها صيد الهوام والتقاطها وهو طائرة أما أسنانها فمن ٢ ـ ٤ في الفك الاعلى ومن ٢ ـ ٦ في الفك الاسفل ، ولها أضراس في فكيها من ٣ ـ ٦ .

وكل أصنافها تشتي أي تكون في حالة خدر ونوم طول الشتاء ، فتأوى الى كهف أو جوف شجرة أو سقوف البيوت فتتعلق بمخالبها وتدلي برؤسها وبلتصق بعضها ببعض وتبقى طول الشتاء لاتتحرك مطلقاً ، وقد تنتبه قليلا للتنفس فاذا جاء الربيع خرجت للحركه والطيران . وهي قسمان كبيرة وصغيره ، فالكبيرة تتغذى بالثمار وتكثر في الغابات الاستوائية ويبلغ حجمها حجم القط وقد تسمى (الثعالب الطائرة) أما الصغيرة فتتغذى الحشرات والهوام والبعوض وهي موضع بحثنا الآن وهناك قسم

أعظم الأرب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه وتصرفه فيما شاء كيف شاء لضرب من المصلحة .

ثالث يسمى (المصاصة) وهي التي تمتص دم الانسان وهي قليلة .

ثم لما كانت هذه الخفافيش سريعة الطيران في الهواء ولم ير بعض المغفلين شيئاً في الجو لتلتقمه قوتاً ظن ان لاطعم لها سوى النسيم وحده وهذا بالضرورة وهم وجهل من وجهين أحدهما خروج الثقل والبول منها وهذا لايمكن أن يحصل من النسيم دون الغذاء الذي يخلف الثقل والبول ، وثانيهما ان لهذا الحيوان أسناناً واضحة ولا معنى لوجود الاسنان في حيوان لا يأكل ، فلا بد إنها تأكل وأكلها كما ذكرنا من الحشرات والفواكه .

أما بعض فوائدها والمآرب التي ذكرها الامام عليه السلام فهي أن زبلها فيه شيء من الفوائد الطبية كما ذكر في كتب الطب القديم مثل انه يقلع القوباطلياً ثم انه يدخل في بعض الاعمال الزراعية كاستعماله سماداً للبطيخ الهندي المعروف (بالرقي) الى غير ذلك مما تذكره بعض الكتب الكيماوية .

وبالجملة فان هذا الحيوان العجيب وما خلق فيه من المتضادات لمن أوضح الادلة في ابداع المصنوعات على قدرة الخالق العظيم وتصرفه فيما شاء كيف شاء لضرب من المصلحة والحكمة فسبحانه تعالى .

أبو تمرة

قال عليه السلام: فاما الطائر الصغير الذي يقال له (ابو تمرة) فقد عشش في بعض الاوقات في بعض الشجر فنظر إلى حية عظيمة قد اقبلت نحو عشه فاغرة فاها تبتغيه لتبتلعه ، فبينما هو يتقلب ويضطرب في طلب حيلة منها اذ وجد حسكة فحملها والقاها في فم الحية فلم تزل الحيـــة تلتوي

ابو تمرة طويرة جميلة المنظر وهي من جملة العصافير الدقيقة المنقار ، وانواعها كثيرة تعيش في أكثر المناطق المعمورة كاليمن والحبشة ووادي النيل والاردن وفلسطين والعراق ، وتعرف (بابي الزهور) و (وعصافير الذباب) . ولكل انواعها ارياش كثيفة طويلة بالنسبة لجسمها ، ولها منقار طويل رقيق محدب ينتهي بحدة في رأسه ، وذنبها مستدير مبتور او محدد ، واجنحتها اطول من الجناح المعتدل ، ولسانها منشطر معقوف الى الوراء وهي تبحث عن الحشرات التي تأتي لامتصاص رحيق الازهار فتقتات بها ، ولهذا الطائر الصغير من الذكاء والحيلة ما يحفظ بهما نفسه من غدر عدوه ، وله فيها حكايات منها ما ذكره الامام عليه السلام لها للعظة والاعتبار وذكرها غيره للعصافير كما ذكرناها لها ، وهنا نكررها لذكر الامام عليه السلام لها وهي انها كانت معشعشة في شجرة اذ قصدت عشها حيـــة عظيمة ذات يوم

وتتقلب حتى ماتت ، افرأيت لو لم أخبرك بذلك كان يخطر ببالك أو ببال غيرك إنه يكون من حسكة هذه المنفعة ، أو يكون من طائر صغير او كبير مثل هذه الحيلة ، فاعتبر بهذا وكثير من الاشياء يكون فيها منافع لا تعرف إلا بحادث يحدث أو خبر يسمع به .

لتبلع العش وما فيه فاضطربت هذه الطويرة الضعيفة الصغيرة ولم تدر ما تفعل لنجاتها ونجاة أفراخها من هذه الطامة الكبرى ، ولكنها سرعان ما اهتدت الى الحيلة والتفتت واذا بحسكة ملقاة على الارض فهبطت عليها بسرعة وحملتها بمنقارها ثم جعلت ترفرف فوق رأس الحية وعندما رأتها الحيه فتحت فاها لابتلاعها ، فالقت الطويرة تلك الحسكة فى فمها ، فغرست الحسكة اشواكها فى داخل فم الحيـة عندما اطبقته عليها ، وكلما عالجت الحية لتخرج الحسكة ازدادت رسوخاً وهكذا جعلت تلتوي وتتقلب حتى ماتت ونجت الطويرة من شرها وعادت الى عشهـا مطمئنة جذلانة ثم قال ﷺ افرأيت لو لم اخبرك بذلك اكان يخطر ببالك يا مفضل او ببال غيرك من الناس ان يحصل من حسكة صغيرة ملقاة على الارض لا اهميه لهـا مثل هذا النفع العظيم ، تقتل ظلماً وتنجي مظلوماً ، ام هل تتصور ان طائراً صغيراً ضعيفاً مثل (ابو نمرة) يحتال لنجاة نفسه بمثل هذه الحيلة لقتل عدوه القوي الكبير ، وهلا تعتبر بهذا وامثاله ان الخالق الحكيم لم يخلق عبثاً ولم يبدع في شيء خال من فائدة وحكمة .

اجل وان في كثير من الاشياء لمنـافع لا تدرك وفوائد لا تعرف حتى يحدث لهـا حدث فتظهر الفائدة ، او ان تسمع لها خبر فتؤمن بمنفعته فتأمل واعرف عظمة الصانع عز وجل .

النحـــل

قال عليه ﷺ : أنظر إلى النحل وأحتشاده في صنعة المسل ، وتهيأة البيوت المسدسه وما ترى فى ذلك من دقائق الفطنه ، فانك إذا تأملت العمل

النحلة حشرة نباتية الغذاء فى جميع ادوار حياتها وعلى الاغلب يكون رحيق الازهار والطلع ، وهي من فصيلة غشائية الاجنحة التي تشمل النحل والنمل والزنبور ، وتسمى (ذباب العسل) ولدى العامة (زنبور العسل) صغيرة الحجم كبيرة العمل جليلة النفع عجيبة في خلقها غريبة في عملها الهندسي المنظم الدقيق عظيمة فى نتاجها المفيد الذي جعله الله شفاء للناس ، قال تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس) .

وتنقسم جماعات النحل الى ثلاثة اقسام . ذكور وعمال ويعسوب (وهي ملكة النحل) ولكن العمال اكثرها عدداً واصغرها حجما ، وعلامه الملكة ان يكون مؤخر جسمها اطول من مؤخر جسم العمال وارق منه .

ولكل قسم من هذه الاقسام الثلاثة عمل خاص لا يعمله غيره فالملكة هي التى تضع البيض فى المقبر (بيت النحل) لذلك قد تسمى (ام المقبز) اما الذكور

رأيته عجيباً لطيفاً ، وإذا رأيت المعمول وجدته عظيما شريفا موقعه من الناس . وإذا رجعت الى الفاعل الفيته غبيا جاهلا بنفسه فضلا عما سوى

فلا تعمل شيئاً غير تلقيح البيوض التي تضعها الملكة في البيت وتسمى احياناً (الكسالى) لان اكثر الاوقات بعد التلقيح يقضونها بالدوي والطنين والتنقل من مكان لآخر ، لذلك فان العمال يكرهونهم وقد يطردونهم عن الخليه وربما قتلوهم لانهم لا يعملون شيئاً .

اما العمال فبعضها يجمع الطعام وبعضها يربي الاطفال الصغار وبعضها يضع الاقراص لبناء القفيز ، والقفيز يتألف من اقراص ذات خلايا مسدسة الشكل تصنعها العمال من نقط صغيرة سائلة من الشمع الذي تفرزه حلقاتها الجلدية الكائنة تحت بطنها وفي مؤخرها حيث تجري هذه النقط وتتجمع في اماكن خاصة من جسم النحلة ، فتقطعها هذه بمؤخرا رجلها وتبنى منها الاقراص للخلايا ، فاذا صنعت الخلايا وضعت في بعضها غباراً وفي بعضها عسلا تجعلهما طعاماً للحياة ، اما الغبار فتجمعه من بعض الازهار وتحمله الى القفيز وذلك بمؤخر ارجلها المبطنة بشعر رقيق يعلق به ذلك الغبار من الازهار ، اما العسل فتمتصه من ارى الأزهار ومائيتها ثم تحمله الى القفيز فتضمه في الخلايا المعدة له ، ويكون الأرى هذا في اول الامر مايعاً وفيه كثير من الماء لكن النحل يجففه بان تجتمع جماعات من العائلات فوق خلايا العسل ثم ترفرف باجنحتها حتى يسمع لها طنين شديد وبذلك يتحرك الهواء فيمر فوق الخلايا العسلية ويبخر ذلك الماء الممزوج مع الارى ويساعد على التجفيف ايضاً حرارة اجسام العاملات المتولدة من حركاتها ، ومن اعمال العاملة جمع الصموغ

ذلك ، فني هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هـذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الناس .

لاصلاح افقرتها : اما تفريخ الملكة فانها تضع في كل خلية من خلايا الاقراص بيضة واحدة ، وبعد ثلاثة ايام من وضعها تنقف البيضة عن دودة صغيرة بيضاء لا ارجل لها فيعتني بها قسم من العالة الموظف لهذه الغاية فقط وذلك ان تطعمها طعاماً مطبوخاً من معدها فتخرجه من فمها وتزقه اياها ، فاذا بلغت الدودة اليومين او الثلاثة شرعت باكل الغبار والعسل المعد لها بالخلية ، ثم تسد العاملات فم الخلية التي فيها الدودة بالشمع ، فتبقى الدودة تأكل مما ادخر لها من الطعام ثم تصوم عن الاكل لمدة (١٣) يوماً تتطور فيها خلقتها ووضع جسمها حتى تصبح نحلة كاملة وعندئذ تنقف سدة الشمع وتخرج لتشاطر اخواتها .

اما الملكة فان كيفية حصولها هي ان جماعة النحل عندما تريد ايجاد ملكة لها جديدة تعمد العاملات الى خلية من الخلايا فتنقف ماحولها حتى اذا انفقت البيضة اطعمتها طعاماً مطبوخاً في معدتها مدة ايام التطوير ولا تسمح لها باكل شيء من الغبار والعسل الى ان تصير حشرة لها هيئة خاصة وتركيب ممتاز جميل تصلح لجعلها ملكة مع العلم ان لا فرق بين بيضة الملكة وبيضة العاملة غير ان هذا التطعيم الخاص هو الذي جعلها بهذا الشكل البديع الذي اهلها لتكون يعسوباً . ولا غرابة فكلما في الخلقة ينطق بحكمة الصانع ، وللنحل مطلقاً ملكة واحدة فاذا ظهرت ملكات حدث لديها اضطراب ثم تختصم هذه الملكات وتتقاتل حتى لا يبقى منها غير واحدة جديدة اما القديمة فتهرب وتتبعها العاملة لتطردها ولا تزال طائرة مطرودة حتى تجد لها قفيزاً او ثقباً أو شجرة او وكراً في جبل تأوي اليه فتسلم ثم هناك تؤلف جماعة من

. . . . . .

النحل الجديد ليكون عليها ملكة مستقلة ، والنحل معها يعدت عن القفير فانها تعود ولا تخطي ، ومن الغريب ان كل عاملة لتنجز عملها بكل نظام ودقة وتجاهد في ذلك، حتى ليسقط كثير منها اعياء وقد تموت في سبيل الواجب ، أما عمرها فان التي تنقف في الربيع تموت بعد شهرين او ثلاثة ، والتي تنقف في الخريف تموت بعد ستة اشهر الى ثمانية ، ولكن الملكه تعيش سنوات قد تبلغ الخمس وقليلا ما تعيش عشر سنوات أو خمس عشرة سنة والملكة تضع في كل سنة حوالى المليون بيضة حسب أحصاء العلماء وللنحل انواع كثيرة في أحوالها وطرق معيشتها فبعضها تعيش انفرادية وبعضها تعاونية وبعضها اجتماعية بسيطة وأرقاها التي تعيش عيشه إجتماعية راقية ، وان اخطر انواعها الحضراء صغيرة الحجم وأرقاها نحل العسل . أما صنعة العسل الذي اشار اليـــه الامام عليه السلام فقد قالت القدماء انه العلل على النباتات يرعاه النحل ثم يتقأه عسلا او هو نفس الزهر بعد الهضم ، وأخيراً اكتشفوا انه عصارة النباتات والازهار المثمرة والفواكه التي تتغـــذى بها النحل ، ثم قال الامام عليه السلام . اذا تأملت العمل أي البيوت الهندسية رأيته عجيباً لطيفاً ، واذا رأيت المعمول وهو العسل وجدته عظيم النفع لذيذاً شافياً ، واذا رجعت الى العامل وهو النحل وجدته حيواناً غبياً جاهلا لما يفعل ، وفي هذا أوضح الدلالة على ان هذا الابداع وجليل الصنع ليس هو من عمل النحل وارادته ، بل للذي طبعه على ذلك وأودع هذه الغريزة في هذه الحشرات الضعيفة الغبية وجعل فيها هذا الاستعداد والقابلية لمثل هـذا العمل العجيب المتقن المنظم واخرج منها شراباً شهياً حلواً عذباً فيه شفاء للناس ولذة للشاربين فسبحان المبدع القدير .

الجـــراد

قال عليه السلام : انظر إلى هذا الجراد ما أضعفه وأقواه ، فانك إذا تأملت خلقه رأيته كاضعف الاشياء وان دلفت عساكره نحو بلد من البلدان لم يستطع أحد أن يحميه منه ، ألا ترى إن ملكاً من ملوك الارض لو جمع خيله ورجله ليحمي بلاده من الجراد لم يقدر على ذلك ، أفليس من

الجراد حشرة من الفصيلة المسماه (المستقيمة الاجنحه) وتكنى أم عوف ، وإنما سمي الجراد جراداً لأنه يجرد الارض من النباتات جرداً ولم يبق منها شيئاً ، ويختلف حجم الجراد من صغير إلى كبير ، كما يختلف لونه من أخضر إلى اصفر إلى أحمر ، ويقال أن الاناثى إذا كبرت أصفر لونها والذكر إذا كبر أسود لونه ، وعلى كل فان لهـــذه الحشرة أربعة اجنحه ينطوي الزوج تحت الزوج بصورة مستقيمة ، واعضاؤها متخصصة للقطع .

وقد وصفها القاضي الشاعر محيي الدين الشهرزوري المتوفى سنة ٨٥٦ هـ فاغنانا عن بيان شكل أعضائها فقال :

لها فخذا بكر وساقا نعامة ... وقادمتا نسر وجؤجؤ ضيغم

حبتها أفاعي الارض بطناً وانعمت ... عليها جيـــاد الخيل بالرأس والفم

وهي تقفز قفزاً عالياً في سيرها ، ومما يساعدها على ذلك إن لها ستة أرجل

الدلائل على قدرة الخالق تعالى أن يبث أضعف خلقه الى أقوى خلقه فلا يستطيع دفعه،انظر كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل فينشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته ،فلو كان هذا مما

ويدان في صدرها وقائمتان في وسطها ورجلان في مؤخر جسمها وهي كالنشار في اسنانه : ويتكون جسمها من رأس وصدر وبطن ، ففي رأسها الكبير المتميز عن الصدر خمسة أعين ، ثلاثة في قمة الرأس واثنان في حاجبيها ، كما ان الرأس يحمل زوجاً من اللوامس المفصليه يتحرك في جميع الجهات ويقوم مقام اعضاء اللمس والشم .

أما الصدر فيتكون من ثلاث حلقات ومنها تخرج الاجنحة ، أما البطن فتتألف من عشر حلقات متشابهة سوى الاولى . وتنتهي الحلقة الأخيرة في الأنثى باربعة أهداب مدببة قوية تحفر بها الارض لتضع بيضها في الحفرة .

وللجراد صفة خاصة وهي تجمعه في أسراب هائله وعدد وافر قد يبلغ الملايين فيسد عين الشمس ويستر نورها عن وجه الارض ، ثم مهاجرته من الجهة التي تربي فيها إلى الجهات الاخرى طلباً للرزق ،ومن صفاته إنه ينقاد إلى رئيسه فيجتمع حوله كالجند حول قائده ،فاذا ضمن أوله يتتابع جميعه ضاغناً ، وإذا نزل أوله نزل جميعه والويل لارض ينزل بها ، إذ لا يعوقه عائق ولا تقابله قوة ملك او جند سلطان مما جمع عدته وعديده حتى يجرد من الأرض نباتها ويستوفي رزقه منها .

أما تفريخ أنثى الجراد ، فانها تلتمس المواضع الصعبة والصخور الصلدة التي لا تعمل فيها المعاول فتعمد اليها وتضربها باهداب مؤخرها الاربعة القوية المدببة فتنفرج عن حفر تضع بيوضها فيها وعددها من ٣٠ ـ ٨٠ بيضة على شكل عنقود ،

يصنع بالايدي متى كان يجتمع هذه الكثرة وفي كم سنه كان يرتفع ،فاستدل بذلك على القدرة التي لا يؤديها شيء ولا يكثر عليها .

ثم تفرغ عليها مادة تشبه الرغوة حتى تملي الحفرة وتجمد حالا ، وذلك لحفظ البيض من النمل وتستغرق هذه العملية ساعتين ثم تموت الانثى بعد ذلك ببضعة ساعات . وبعد ثلاثة او أربعة اسابيع إلى خمسة يفقس البيض عن (الدبى) وهي بلا أجنحة فتزحف بمجموعه كالجيش ويهاجم المزروعات، ثم تجري عليه في مدة نموه استحالات وتغيرات في أدوار وفي مدة شهرين تقريباً حتى يصبح هذا الجيش الجرار جراداً كاملا يطير وينتقل من مكان إلى مكان في طلب قوته .

هذا هو الجراد القوي العمل الضعيف الجسم والذي يصطاده اصغر الحيوانات وأضعف المخلوق في حين أن قوته لا تصدها قوة وفعله لا يرده سلطان ، فتراه إذا انساب على وجه الارض غشى السهل والجبل وأخاف البدو والحضر ، وإذا طار سد الفروج وسترعين الشمس عن الارض وهـــذا هو المراد بقول الامام عليه السلام : ما أضعفه وأقواه .

فتأمل ضعفه وقوته وانظر كثرته الهائلة وفكر في نظامه في سيره وإتباعـــه لرئيسه وشدة وطئته على الارض ، وما إلى ذلك من عجيب خلقته وعظيم عمله لترى هل هناك مجال للايدي أن تعمل وتصنع مثل هذا ، أم هل يمكن للزمان القصير ان يوجده ،ثم انصف وقل هل لمدعي المصادفة والاهمال في مثل هذه الخلقة عقل او إدراك اللهم إلا قدره الخالق العظيم وحكمة المبدع العليم فسبحانه من عظيم عليم .

السمك

قال عليه السلام تأمل خلق السمك ومشاكلته للامر الذي قدر أن يكون عليه ، فانه خلق غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء ، وخلق غير ذي رئه لأنه لا يستطيع أن يتنفس وهو منغمس في اللجة ، وجعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها في جانبيه كما يضرب الملاح بالمجاديف من جانبي السفينه ، وكسى جسمه قشوراً متانا

السمك فصيلة من الحيوان قائم برأسه تدخل فيها الاسماك الاعتيادية والغضروفيه والرئويه ، وكلها تعيش في الماء طيلة حياتها ، وتتنفس بواسطة الغلاصم (الخياشيم) . ويكسو جسمها هيكل خرشفي خارجي . ويختلف شكل الاسماك باختلاف أنواعها ، وعلى العموم كلها عديمة العنق ، وقد خلق غير ذي قوائم (ارجل) لأنه لايحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء ، بل خلق له على العموم زوجان من الزعانف زوج أمامي ويسمى (الكتفي) وزوج خلفي ويسمى (الحوضي) . وله عدا هذين الزوجين زعنفة وسطية واحدة وقد تكون زعنفتين ونادراً ثلاث زعانف في الظهر وتسمى (الزعانف الظهرية) كما يكون له واحدة أو اثنين في البطن وتسمى (البطنية) وكل هذه عدا الزعنفة الذنبية . أما الزعانف الفردية فانها تساعد السمكة على الحركة داخل الماء ، وأما الزعانف الزوجية فتساعدها على الصعود والهبوط في الماء

متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه من الآفات ، فاعين بفضل حس في الشم لان بصره ضعيف والماء يحجبه ، فصار يشم الطعم من البعد البعيد فينجمه فيتبعه ، وإلا فكيف يعلم به وبموضعه ، وأعلم أن من فيه الى صماخيه منافذ

كما تساعدها على حفظ التوازن والوقوف فى قعر الماء ، وقد سمى الامام عليه السلام هذه الزغانف بالاجنحة الشداد ، واشار إلى عملها بالضرب إلى الجانبين لتحريك الجسم صعوداً وهبوطاً وجرياً فى الاطراف إذ شبهها بالمجاديف يد الملاح من جانبي السفينه ثم قال عليه السلام : وكسي جسمه قشوراً متانًا الخ معبراً بها عن الحراشف ، فان معظم الاسماك قد كسي جسمها بحراشف صلبة متينه بعضها فوق بعض ، وذلك لتكون لها كالدرع يقيها من الصدمات الخارجية من حيوان وغيره ، وتنشأ هذه الحراشف او القشور عن الادمة وتختلف اشكالها حسب اختلاف أنواع السمك ، فبعضها دائرية وأخرى مشطية ومنها شوكية ، ويغطيها كلها صنف من الجسيمات ذات عدد صغيره تفرز سائلا مخاطياً يجعل السمكة سهلة الانزلاق والانفلات ، أما تنفسها فقد ذكر الامام عليه السلام إنها تتنفس من الغلاصم ، وهي عبارة عن صفائح رقيقه تنتشر فيها أوعية شعريه دموية ، يتعرض أكبر سطح منها للماء المذاب فيه الهواء ، فيحصل تبادل بين محتويات هذه الاوعية من الدم الغازي وبين الهواء المذاب فى الماء ، ثم يعود الدم من الغلاصم إلى سائر انحاء البدن بعد تزويده بالاكسجين ، فيدور دورته فى جسم السمكة ثم يعود إلى الغلاصم ، وهكذا تتكون لديها دورة دمويه فلو وضعنا سمكة فى ماء قد غلى او اناء أخلى من الهواء بواسطة من الوسائط لماتت السمكة حالا لانعدام تنفسها ثم ان لها في مقدمة الرييه كيس هوائي مماثل للرئه (وليس برئه)

فهو يمتص الماء بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح الى ذلك كما يتروح غيره من الحيوان الى تنسم هذا النسيم .

ينشأ لها منذ الدور الجنيني ، وفائدته إنها اذا أرادت الهبوط في الماء عملت على تصغير حجمه بامتصاص شيء من محتوياته الغازية فتغوص وبالعكس اذا أرادت الصعود اضافت شيئاً من الهواء إلى محتوياته ، وهكذا ، وهذا يكون معيناً لها على التنفس مضافاً الى الغلاصم ، والى هذه الاوعية الدموية المنتشرة في الغلاصم أشار الامام عليه السلام بقوله : ان من فيه الى صماخيه منافذ ، كما قال عليه السلام في جذب الاكسجين وتبادل الاوعية : كما يتروح غيره من الحيوان الى تنسم النسيم .

ثم لما كانت أعضاء الحس في السمك ضعيفة وهي العينان اللتان يحجبها الماء عن الرؤية ، والاذنان اللتان لاحيلة لها فلا تنتقل الامواج الصوتية اليها بواسطة عظام الجمجمة ، وغشاء النسيخ الطلائي للفم الذي هو مقر حاسة الذوق ، وجلد الشفاه الذي يكون بمثابة عضو اللمس ، أقول لما كانت كل هذه الحواس ضعيفة وهي بالضرورة محتاجة اليها جعل الله تعالى لها خلايا حسية تقع تحت الخطين في الجانبين وبواسطتها تشعر السمكة باضعف التموجات داخل الماء ، حتى انها لتشعر بسببها العمق الذي هي فيه أما الشم الذي هو أقوى ما لديها من الحواس فهو بواسطة الكيسين الشميين اللذين لم يوجد لها اتصال مع تجويف الفم ولا الخياشيم ، وبواسطتها تشم السمكة الطعم من بعد بعيد فتنجه وتتوجه نحوه وتتبعه اين ما ذهب حتى تمسكه وتأكله ، ولولا اعانة هذا الفضل من الشم لما حصلت السمكة على قوتها الذي قل ان تبصره وهذا من فضل باريء النسم ومزيد النعم .

تناسل السمك

قال الامام عليه السلام : فكر الآن في كثرة نسله وما خص به من ذلك فانك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة ، والعلة في ذلك ان يتسع لما يغتذي به من اصناف الحيوان ، فان اكثرها يأكل السمك حتى ان السباع ايضاً في حافات الأجام عاكفة على

خلق السمك كثير النسل كثير العدد كثير الانواع ، وذلك لكثرة آكليه والمتغذين به من أصناف الحيوان ، فان أكثر انواعه يأكل السمك حتى السباع المفترسه بل ان بعضها لاتقتات إلا بها مثل الدب الأبيض والدب الاسمر وسبع البحر . وكذلك بعض الطيور كالبرهان والقلق والدواس وأمثالها التي يكون أغلب قوتها من السمك ، ومثلها بعض الاسماك نفسها ، فالكبيرة تأكل الصغيرة وهي مثل الدولفين التي تاتهم الاسماك التهاما . أما الانسان فلا يحتاج بيان اكله للسمك بطرق مختلفة كما يستعمل شتى الطرق لصيدها وأنواع الطبخ للأستلذاذ به قوتا وتفكها .

فلما كانت السباع تأكله والطير يأكله والناس يأكلونه والسمك نفسه يأكل السمك ، كان من الحكمة والتدبير أن يكون على ما هو عليه من الكثرة لكي يكفي لقوت هذا المخلوق الكثير من أصناف آكليه وطالبيه .

الماء ايضاً كي ترصد السمك فاذا مر بها خطفته ، فلما كان السباع تأكل السمك والطير يأكل السمك والناس يأكلون السمك والسمك يأكل السمك ، كان من التدبير فيه ان يكون على ما هو عليه من الكثرة ، فاذا

هذا ما ندركه بعقولنا القاصرة المحدودة الادراك ، أما اذا أردنا معرفة سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين بالخلقة ، فلننظر إلى ما أودع الصانع في جوف البحار من ضروب الاسماك وصنوف دواب البحر واشكال الاصداف وسائر الحيوانات المختلفة التي لاتحصى عدداً ، ولا يمكن لبشر أن يميزها ويعرفها مهما أوتي من عقل ونشاط وقوة وذكاء ، فان العقل لا يدرك الا ما كان مماثلا لما رآه ليقيس عليه ثم يستنتج شيئاً ثالثاً ونتيجة مطلوبة .

ولما لم يكن في العالم خلق وجد عبثاً بل لابد وان يخلق لحكمة فيه ، فقد كانت العقول الجبارة والافكار المدركة لم تصل الى فوائدها ومنافعها الا الشيء بعد الشيء على التدريج بواسطة التجارب ومرور الحوادث المتتالية او باسباب يسببها الله تعالى لطفاً ليهدي الناس الى ما ينفعهم وينبههم الى ما يضرهم في هذه الحياة اما الاسباب والطرق المرشدة فهي اما بتعاليم الرسل والانبياء او بالمصادفة ، او بواسطة بعض الحيوانات واعمالها الغريزية الى غيرها من شتى الوسائل التي تحصل للانسان حالا بعد حال اوزماناً بعد زمان ولله في خلقه شؤن .

اما طريقة تناسل السمك فهي ان الاناث التي هي اكبر من الذكور على الاغلب تضع بيضها بصورة كتلة او عنقود ، وبعدد كبير قد يبلغ « ١٠٠٠٠٠٠ » بيضة ، ثم تتركه غير مهتمة به ، ولكن الذكور هي التي تعتني بالبيض بعد

اردت لن تعرف سعة حكمة الخالق ، وقصر علم المخلوقين ، فانظر الى في ما البحار من ضروب السمك ودواب الماء والاصداف ، والاصناف التي لا تحصى ولا تعرف منافعها الا الشيء بعد الشيء ، يدركه الناس باسباب تحدث ،

تلقيحه بالقاء نطفتها عليه ، وهكذا تبقى الذكور محافظة عليه حتى يخصب ، وقليلا ماتقوم الاناث بهذه العناية وبعد اسبوع الى اربعة اسابيع تشقق السمكة البيضة لتخرج ، وقد تبلغ عناية الذكور بالبيض الى ان تأخذه في افواهها ثم تضعه في حفر في قاع البحر ثم تغطيه بالطمى والرمال وتظل ترعاه حتى يشقق ، وفي بعض انواع السمك ما يبنى الذكر عشاً خاصاً لتضع انثاه بيضها فيه ثم يلقي الذكر نطفته عليها ويظل يحرس ذلك البيض من الاعداء وهي الاسماك الاخر التى تأكل البيض والاسماك الصغار بل ويحرسها من انثاه ، وقد يحدث بينه وبين الام شجار عنيف على البيض اذ تريد الانثى اكله ، ومن رعاية الذكر للبيض انه قد يقف احياناً على جانب العش ويحرك عوامه الصدري ليدفع الهواء الى البيض لاجل التنفس . وقيل ان بعض السمك يلد سمكا صغاراً ولا بيض . ومنه ما يتولد بالسفاد . ومنه ما يتولد من الطين او من الرمل كما يتولد من الصفونات ايضاً وهذا مما يحتاج الى تحقيق ، واعلم ان بيض السمك ليس له بياض ولا صفرة كبيض سائر الحيوانات وانما هو لون واحد .

وقد صنف علماء الحيوان فصيلة السمك الى ثلاثة اصناف عامة وهي :

(اولا) الاسماك الاعتيادية العظمية وتشمل الوهاجة وابى منقار وامثالها كما تشمل الاسماك كاملة العظام مثل الشبوط والبنى والبز وكل الاسماك التي تستوطن المياه العذبة والمالحة .

مثل القرمز فانه لما عرف الناس صبغه ، بان كلبة تجول على شاطيء البحر فوجدت شيئاً من الصنف الذي يسمى « الحلزون » فاكلته ، فاختضب خطمها بدمه ، فنظر الناس الى حسنه فاتخذوه صبغاً ، واشباه هذا مما يقف الناس

(ثانياً) الاسماك الغضروفية وهي اقدم الاسماك المعروفة كالكوسج والرعاد

(ثالثاً) الاسماك الرئوية وهي التي تتنفس خارج الماء وهذه تعيش في المستنقعات غالباً ومن عاداتها انها تكون في الاوحال في اكثر اوقاتها ، حيث تطمر نفسها في الطين مدة اسابيع ، وهنا لما جاء ذكر الرعاد والاسماك الزاهره احببت بيانهما للفائدة وعجلا .

اما الرعاد فهو سمكة صغيرة اذا وقعت في شبكة صياد وسمك جبلها ارتعدت يده وارتجفت لذلك فان الصياد يشد الحبل في وتد او شجرة ويتركها في الشبكة مدة حتى تموت وتبطل خاصيتها . اما الاسماك الزاهره وتسمى المضيئة ايضاً فانها تستوطن البحار العميقة غالباً فتراها تتلألأ حتى تكاد تضيء للساري في الظلام وتكون في عمق سحيق لا يقل غوره عن الفي متر حيث لا تصل اليها اشعة الشمس وحيث الظلام الدامس فتكون هناك مثل المصابيح لسكان البحار ، وكيفيتها ان تنتشر على جسمها من الرأس الى الذنب بقع صغيرة مدورة كاجهزة تضيء بالوان مختلفة من بنفسجي الى احمر الى اخضر الى برتقالي ، وبعضها ترسل حزماً نارية قوية جداً تشبه مصابيح السيارات ، يشتد ضوؤها ويضعف وقد ينطفي .

وقد اكتشف العلماء هذه البقع فرأوها موضوعة في وسط خلايا صغيرة يفتحها الحيوان ويغلقها باختياره . وان لهذه الاعضاء المضيئة في تلك الاسماك من المنفعة غير الاضاءة ما هي ضرورية لحياتها ، فان تلك الاعضاء تكون كالأحابيل

عليه حالا بعد حال وزماناً بعد زمان .

تصيد بها فريستها من الاسماك الصغار فتعيش بها . لان الاسماك الصغيرة تتهافت كالفراش على هذا الضوء فاذا وردت عليها اصطادتها وافتاتت بها ، وقد تكون هذه البقع المضيئة على اشداق السمكة فاذا انجذبت اليها السمكة الصغيرة دخلت فى فيها رأساً دون اي تعب او احتيال لصيدها فتزدردها هنية مريئة فسبحان من خلق فرزق وصور فاحكم وامر بالتفكر في الآفاق والانفس لتكون له الحجة البالغة وليهدي عباده الى ان .

في كل شيء له آيـــة تـــدل على انه واحد

نهاية اليوم الثاني

قال المفضل بن عمر رحمه الله ولما اكمل الامام عليه السلام كلامه وتم ما املاه على سيدي فى اليوم الثانى حان وقت زوال الشمس ظهراً ووجبت الفريضة فقام مولاي الصادق عليه السلام الى الصلاة وقال بكر اي اثنني صباح غد ان شاء الله تعالى لاكمل لك الحديث وابين لك ما يرشدك ويعينك على ثبات ايمانك واثبات توحيدك فانصرفت من خدمته وقد تضاعف سروري عما كنت عليه بالامس وذلك بما عرفنيه من المعرفة بالله ومن اسرار الخلقة وحكمة الصنعة مبتهجاً بما منحنيه من دلائل التوحيد وبراهين الحكمة البالغة حامداً الله على ما آتانيه سبحانه من التوفيق لتشرف بخدمة سيدي ومولاي الصادق وجعله اياي موضع ثقته في بث تلك الاسرار عظيمة والمعارف الجليلة لذلك فقد بت ليلتي كلها مسروراً مبتهجاً فالحمد لله على ذلك والصلاة والسلام على محمد وآله .

دليل الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الكتاب
٧	الشروع بالكلام
١٢	عدل الله فى خلقه
١٦	نفي الظلم عن الله تعالى
٢١	عظمة القرآن
٢٥	الخلق حيارى
٢٨	النفوس الواطئة
٣٠	اماتهم من الموت المفاجيء
٣٣	التحذير من يوم الآخرة
٣٥	بكاء الفضل وبشارة الامام (ع) له
٣٧	ابتداء الكلام
٣٨	ابنية ابدان الحيوان
٤٧	بيان وصفها
٥٢	الانعام
٥٧	آكله اللحوم وآكله النبات والمشتركه
٦٢	آكلات اللحم من الحيوان
٦٥	ذوات الاربع
٦٧	الطير
٧١	قوائم الحيوان
٧٣	حكمة تسخير الانسان للحيوانات
٧٨	حكمة تسخير السباع
٨٣	الكلب
٨٦	وجه الدابة
٨٩	ذنب الدابة وشعره
٩٢	ظهر الدابة وحياها
٩٤	مشفر الفيل
٩٧	عنق الفيل
١٠٠	حياء اتى الفيل
١٠٢	الزرافة
١٠٧	القرد

الصفحة	الموضوع
١١٢	كسوة اجسام البهائم
١١٧	البهائم يوارون انفسهم إذا احسوا بالموت
١٢٢	فطن البهائم كما فى الأيل
١٢٦	الثعلب
١٢٩	الدلفين
١٣١	التنين والسحاب
١٣٥	الذرة
١٣٧	النمل
١٤٢	اسد الذباب
١٤٤	العنكبوت
١٤٨	جسم الطائر
١٥١	حرارة جوف الطير ومنقاره
١٥٣	الطير بيض ولا يلد
١٥٦	الدجاجة
١٥٩	البيضة
١٦١	حوصلة الطائر
١٦٣	اختلاف الالوان فى الطيور
١٦٨	ريش الطائر
١٧٠	الطائر طويل الساقين
١٧٤	العصفور
١٧٨	الطيور الليلية
١٨٤	الخفاش
١٨٨	ابو نمرة
١٩٠	النحل
١٩٤	الجراد
١٩٧	السمك
٢٠٠	تناسل السمك
٢٠٤	نهاية اليوم الثاني
٢٠٨	مراجع الكتاب
٢٠٦	دليل الكتاب

مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي عليه السلام

٣ ـ مجمع البحرين للمرحوم الطريحي عليه السلام

٤ ـ شرح الصحيفة للسيد علي خان عليه السلام

٥ ـ المعجم الزوولوجي الحديث للملكي ثلاثة اجزاء

٦ ـ الحيوان للجاحظ

٧ ـ حياة الحيوان للدميري

٨ ـ علم الحيوان مدرسي

٩ ـ عجائب المخلوقات فارسي للعلامة زكريا بن محمد بن محمود الكوني القزويني المتوفى ٧٣٢ هـ

١٠ ـ دائرة المعارف للبستاني

١١ ـ دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي

١٢ ـ الفرائز للاستاد محمد حسنين العمراوي

١٣ ـ القاموس للفيروز آبادي

١٤ ـ بعض المجلات العلمية وغيرها